الرجل الخراب

عبد العزيز بوكتة ساكن

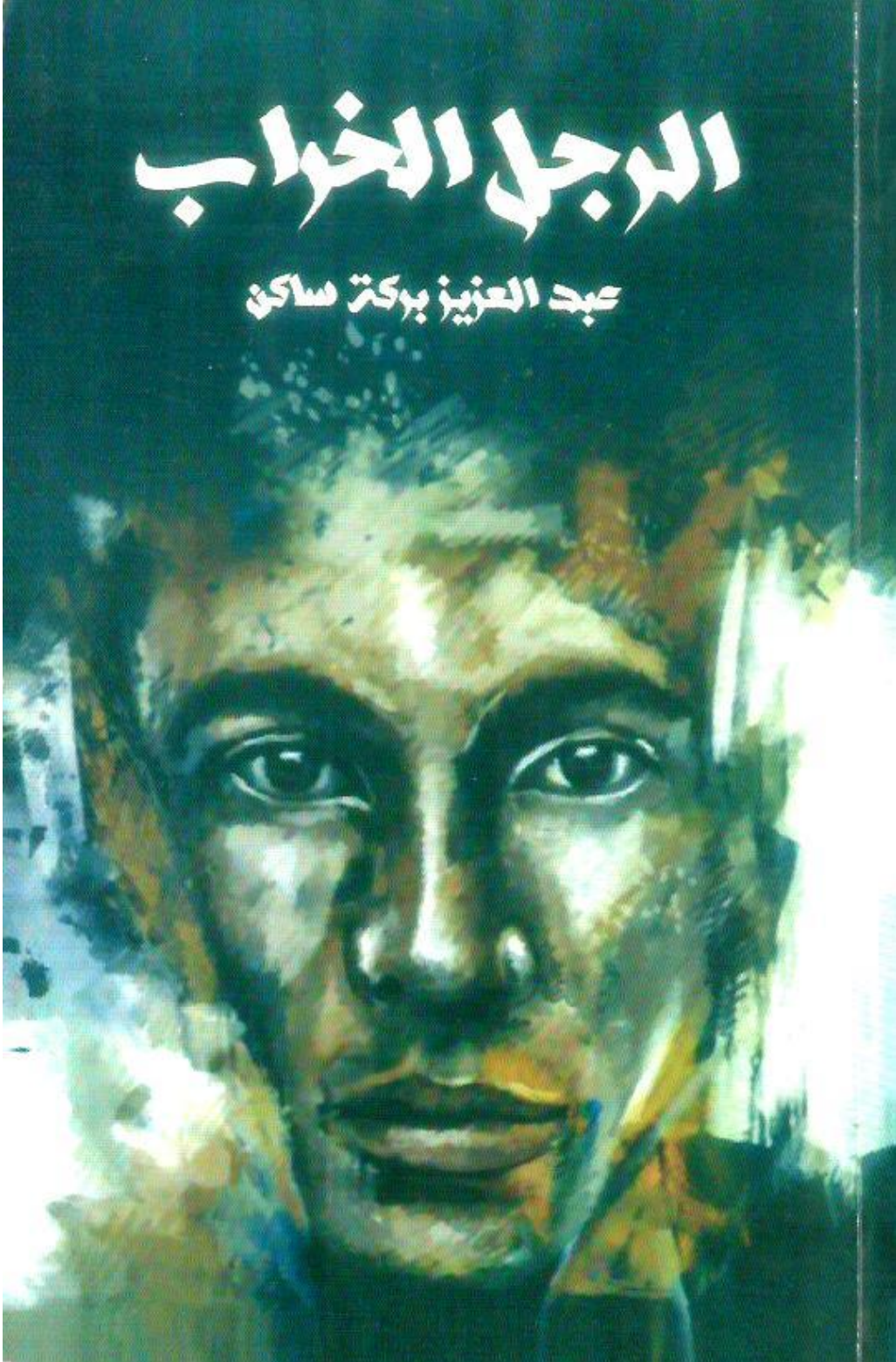

الرجل الخراب

الرجل الخراب

تأليف
عبد العزيز بركة ساكن

كلمات | هنداوي

الرجل الخراب

عبد العزيز بركة ساكن

الطبعة الأولى ٢٠١٥م
رقم إيداع ٢٣٢٧٠ / ٢٠١٤
جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦ / ٨ / ٢٠١٢

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه
٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٢٧٠٦٣٥٢ ٢٠٢ + **فاكس:** ٣٥٣٦٥٨٥٣ ٢٠٢ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

ساكن، عبد العزيز بركة.
الرجل الخراب/تأليف عبد العزيز بركة ساكن.
١٢٨ص، ١٤,٥×٢١سم
تدمك: ٤ ٢٠٨ ٧٦٨ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣

تصميم الغلاف: وفاء سعيد.

يُمنَع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية، ويشمل ذلك التصوير الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مضغوطة أو استخدام أية وسيلة نشر أخرى، بما في ذلك حفظ المعلومات واسترجاعها، دون إذن خطي من الناشر.

Cover Artwork and Design Copyright © 2015 Hindawi Foundation for Education and Culture.
Copyright © Abdelaziz Baraka Sakin 2015.
All rights reserved.

المحتويات

إهداء	٧
توني لا يكره العرب	١١
مُخَرِّي الكِلاب	٢٣
درويش	٣٥
الفضيحة	٤٥
الأَجْنَبِيُّ	٥٥
السيدةُ لُوديا شُولز	٦٧
البنت والأب	٦٩
سِيرَةُ المَرأةِ	٧٣
حوارٌ من أجل البنت	٩٥
الفصل الأخير	١٠٣
الرجلُ الخراب	١٠٩

إهداء

لأُمِّي مريم بنت أبو جِبرين.

للأصدقاء: أحمد زكي، كريستينا إزنجر، جان دوست، ورودي راينر، أراس بيدرو، إلى أمل الخاتم، لمستنير والمهاتما، لجمال عباس ومي التجاني وسَلمى أبو سمرة، مناهل حمَّاد، لأُختيَّ محاسن وإحسان، لعمر بركة ومحمد بركة والفاتح بركة وزكي بركة ومحمد عوض كاجوك وحسن عبيد، لأستاذيَّ صالح فرح ومعتصم المقبول، لأستاذيَّ كمال الجزولي ومبارك الصادق، لرحاب سُليمان وحاتم جريس، لفاطمة هندي وزوجها فل.

ولشخصٍ له فضل كبير فيما أكتب؛ ألا وهو الشيطان الذي كان يشاطرنا بيتنا الصغير في القضارف، وإلى وقتٍ قريبٍ كان يَكتُب لي الروايات، ويقول لي ما لا ينقال.

أنت، أيها القارئ المرائي! يا شبيهي، يا أخي!

شارل بودلير

توني لا يكره العرب

نُورا شُولز، تبدو اليوم أكثر سعادة من أي وقت مضى في حياتها؛ فقد وجدت ابنتها ميمي أخيرًا صديقًا ein Freund، ليس لأن ميمي ليست جميلة، ولكنها كانت غير اجتماعية ودائمًا ما يغمرها إحساس بالوحدة، أو أنها هي التي تجد نفسها في الوحدة، وكلما تقرَّب منها شابٌّ ارتبكت وعملت على الابتعاد عنه بقدر الإمكان، وقد تُسْمِعه بعض كلماتٍ غير لائقاتٍ أيضًا.

كان هذا يمثِّل قلقًا كبيرًا للأسرة الصغيرة، خاصَّة أن ميمي تبلغ الآن من العمر ثمانية عشر عامًا بالتمام والكمال، ولا تزال هدايا عيد ميلادها الثامن عشر تتناثر في حجرتها. لقد تعبتْ أُمُّها كثيرًا في أن تقبل ميمي صديقًا، وأنفقتْ في ذلكَ مالًا كثيرًا؛ حيث إنها عرضتها مرارًا وتكرارًا على الباحثين الاجتماعيين بالمنطقة، وأخذتها أكثر من عشرين مرة لاختصاصيٍّ نفسيٍّ بفيينا. كانت نُورا تقوم بكلِّ ذلكَ بنفسها، ولم تجد العَوْنَ من زوجها حُسني درويش الذي اسمه الآن «هاينرش» Heinrich؛ فقد كان يرى أنه لا داعي للقلق بشأن البنت، وأنها ما زالت صغيرة، وعليها أن تنتبه لدراستها، ويُفضَّل أن تدخل في «علاقة جيدة» القصد منها الزواج. هو لم يقل ذلكَ مباشرة لزوجته نُورا، ولكنه كان يفعل كلَّ ما يعزز رأيه، ويعرف أن ذلك ببساطة سيدعم فكرتها المسبقة عنه بعدم مقدرته على الاندماج في المجتمع الأوروبي، وأنه ليس برأسه الكبير سوى خرافات القرون الوسطى. وعندما أخبرته نُورا هذا الصباح وهي في غاية السعادة أن «ابنتنا الطيبة قد حصلت

على صديقٍ وسيمٍ في عمرها»؛ في الحقيقة يكبرها بشهرين، قال لها محاولًا أن يضع ابتسامةً كبيرةً مزيفةً على وجهه الحليق بدقة، تُخفي أحاسيسه الفعلية، وتُظهِره كرجلٍ متمدنٍ يستحقها: يااه ... أخيرًا! كم أنا سعيد بذلك!

احتضنته نُورا وقبَّلته بحنوٍّ، ثمَّ جلست قربه على الكنبة الفسيحة وأخذت تحكي له عن توني.

ليس توني شابًّا وسيمًا جدًّا، إنه من عيِّنة الأشخاص الذين لا يمكنك أن تطلق عليهم لقب القبح، ولكنه مقبولٌ على كل حال. أمَّا ما يميزه عن شباب هذه الأيام فأنه مؤدبٌ ومحترمٌ، ولا يتعاطى أيًّا من المخدرات، بل لا يحتسي الكحول. يحب الموسيقى جدًّا، وهو أيضًا يعزف على الجيتار ويغني أحيانًا. درس إدارة الأعمال في «جامعة سالزبورج». من أسرة ثرية بعض الشيء، ووالداه طبيبان معروفان في المدينة. إذا كان به عيب واحد — إذا اعتُبر ذلكَ عيبًا — فهو أنه يترك شعره دون حلاقة، ويحتفظ ببعض أظافره طويلة، ولا يؤمن بأيٍّ من الرسل، ولكنه يؤمن بأن هنالكَ خالقًا للكون، ولكن ليس هو الذي يرسل رسلًا لكي يخبروا الناس عنه. في رأيه أنَّ الربَّ قادر على توصيل ما يريده مباشرةً لمخلوقاته، وربٌّ في استطاعته أن يخلق كونًا بهذه العظمة والتعقيد، لا يصعب عليه حيلة ابتكار عملية سهلة وجيِّدة في التعبير عمَّا يريد أن تكون عليه مخلوقاته، بل باستطاعته برمجتها على مشيئة جلالته؛ بالتالي ما يكون عليه الكون الآن هو بالفعل إرادة الله. وتعرف نُورا أن زوجها قد يكون مُتحفِّظًا بعض الشيء عندما يعرف ذلك في يومٍ ما، قالت له: توني أيضًا لا يكره العرب!

وهذه الجملة الأخيرة أخافته بالفعل، فلنقل إنها أربكته، ولو أن زوجته كانت تظن أنها من الإيجابيات، إلا أن درويشًا أو هاينرش منذ أن قدم إلى النمسا في تسعينيات القرن الماضي قد قطع علاقته بكلِّ ما هو مسلمٌ وعربي. نعم، إنه في الآونة الأخيرة أخذ يسافر كثيرًا لزيارة أسرته بمصر والسودان، ويضع ذلكَ في إطار العلاقات الاجتماعية والإنسانية لا أكثر. قد لا يريد أن يورِّط نفسه في تحمل ما يقوم به المسلمون والعرب في شتى أنحاء العالم من خير وشر، ولكنه أيضًا كان يُفضِّل أن يبدأ حياته من جديد، من دون تاريخ، تمامًا من دون أيِّ تاريخ، ولا يمكن أن نفسر تغيير

اسمه إلى هاينرش بأنه واحد من عمليات محو تاريخه الواعية جدًّا؛ فهو لم يفعل ذلكَ إلَّا لأنه إذا أراد أن يحتفظ باسمه العربيِّ عليه أن يدفع ما يعادل اليوم مبلغ ٥٠٠ يورو عن كل اسم؛ أي ألفًا وخمسمائة يورو إذا أراد أن يكون اسمه «حُسني درويش جلال الدين». هذا إذا أقنع دائرة الهجرة أن «جلال الدين» هو اسم واحد، وإلَّا لكان عليه دفع ألفي يورو كاملة. وكان يحتاج النقود في أشياء أخرى، ولا يرى أن هنالكَ داعيًا ملحًّا لخسارة مبلغٍ كبيرٍ كهذا؛ لذا لم يحتفظ بأيٍّ من أسماء أسرته أو حتى اسمه، فاختار أول اسم ورد إلى ذهنه، وهو «هاينرش»، ثمَّ أضاف إليه كلمة «شُولز»، وهو اسم أسرة زوجته، و«أراح واستراح»؛ فما يفيد الاسم؟ وما الفرق بين «شُولز» و«درويش» وهو ليس عالِمًا له نظريات مُسجَّلة باسمه، ولا كاتبًا له مؤلفات مهمَّة، ولا موسيقيًّا أو شاعرًا، ولا حتى من أسرة مشهورة ذات تاريخٍ ما يريد أن يحمل اسمها؟ كما أن شهاداته الجامعية لا أحد يعترف بها هنا، وليس له أبناء سيرثونه خارج هذه البلاد. وهو أيضًا ليس له ما يرثه؛ إذن ليس باسمه ما يهم! عندما يذهب إلى بلده في زيارةٍ ما، فإنهم سينادونه باسمه الحقيقيِّ القديم، وحينها ستتحقق الفائدة — إذا كان لاسمه فائدة تُذكر.

هاينرش يحبُّ أن يبتعد عمَّا يسمِّيه «منطقة الغليان» و«سيرة الغليان»، بل رائحته أيضًا؛ فقد بدأ حياةً جديدةً منذ زمنٍ ليس بالقصير، ولا يريد أن ينظر للوراء مرةً أخرى، إلَّا بريبةٍ وظنون؛ فكلمة «عربي» هنا مرادفة لكلمة «مسلم»، ويفهم كثيرٌ من الأوروبيين أن الكلمتين ترادفان ثلاث كلمات أخرى؛ وهي: «الثراء الفاحش»، و«الفقر المدقع»، و«التطرف الأعمى».

قال لها: أنا لا أهتم بموضوع الديانات كثيرًا.

قالت له في إصرار وهي تنظر في عينيه: بل تهتم، لقد رأيتكَ تصلي، مرتين على الأقل؛ مرةً عندما كنا في الغابة قبل عشرين عامًا على الأقل، ومرةً قبل شهرين عندما كنا على شاطئ النهر الصغير في «فايسباخ» Weissbach.

قال لها وهو يتجنب النظر إلى ابتسامة نصرٍ صغيرةٍ تتشكل تدريجيًّا في فمها: نعم، وربما سوف ترينني أفعل ذلكَ مرَّاتٍ أخرى. أحيانًا أحس

بأنني مدينٌ لله، خاصَّة عندما أرى جمال الطبيعة، فإنني أراه هنالك؛ لذا ليست صلاتي سوى «تحيةِ شكرٍ وعرفانٍ» لا أكثر! فهي لا تخص دينًا بعينه، ولا تعني شيئًا لشخص غيري.

سألته سؤالًا مفاجئًا ما كان يتوقعه: هل أنتَ ما زلتَ مسلمًا؟

قال لها مبتسمًا: نعم.

نستطيع أن نقدِّر عمر هاينرش الآن بحوالي بضعٍ وستين عامًا. وهذا اعتمادًا على طبيب الأسنان ووثائق مكتب العمل؛ فهو لم يمتلك شهادة ميلاد، كل ما يعرفه عن تاريخ ميلاده هو شهادة أمه بأنه ولد قبل حرب فلسطين التي وقعت بين اليهود والعرب بسنة كاملة، وكانت تقصد حرب ١٩٤٨، ولكنها أيضًا قد تقصد حروبًا سابقة لحرب ٤٨ أو لاحقة لهذا التاريخ، أو العدوان الثلاثي على مصر في ٥٦، فذاكرتها مشحونة بحروب كثيرة، بعضها لم يحدث بعدُ، وبعضها حدث بعد وفاتها بعشرين عامًا، وبعضها مجرَّد حكايات سمعتها من جداتها. وكان هاينرش يعلم ذلك، ولكنه قرر لنفسه أنه ولد في ١/١/١٩٤٧، ووافقه بدرجة كبيرة طبيب الأسنان، وحرَّر له شهادة بذلك، قدَّمها للجامعة من قبلُ، ثمَّ لمكتب العمل، واعتمدها لتعيين تاريخ ميلاد رسميٍّ له. وهو الآن ينعم بالمعاش في ظل هذه الشهادة الواقعية وغير الصحيحة بالمرة؛ لأن عمره الفعليَّ غير ذلك، فهاينرش قد وُلِدَ بعد ذلكَ التاريخ بعدة سنوات؛ أي بالدقة في ٣٠/١٠/١٩٥٦. بالطبع لم يعمل بشهادة تقدير العمر التي استخرجتها له أمه عند دخوله المدرسة في السودان، وتنصُّ على أنه مواليد ١/١/١٩٥٠. وإذا كنا الآن في سنة ٢٠١٣ في شهر مايو؛ فإن عمره الآن ٦٣ عامًا. وهذا غير مهم؛ لأنَّ لا أحد غير الراوي «العليم بكل شيء» يعرف تلكَ الحقيقة، وسوف لا يُعوَّل عليها كثيرًا، عدا عن أنَّ ما سوف يلاحظه القراء في الصفحات القادمة من الرواية، أنَّ هاينرش يقوم بأنشطة وأفعال أصغر من عمره المعلن بكثير، بل إنه يأخذ المعاش الرسمي من الحكومة ويعمل في ذات الوقت في شركة ألبان مراقبًا للتعبئة ٢٥ ساعةً في الأسبوع، مع الاحتفاظ بصحةٍ جيدة يحسده عليها كل من هو في عمره المُعلن، وعمره الحقيقي أيضًا؛ فمنذ أن قَدِمَ إلى النمسا في ٣/١/١٩٩٢، لم يذهب إلى الطبيب سوى مرتين؛ المرة الأولى

إجباريًّا حين أخذه مكتب الهجرة للفحص الشامل، والمرة الأخرى ذهب إلى طبيب الأسنان للتخلص من ضرس العقل المسوَّس. أما الطبيب البشري فلم يتشرف بزيارته إلى اليوم بإرادته (لم نضمِّن مرَّاتِ ذهابه إلى الطبيب البيطري؛ فلقد كانت كثيرةً جدًّا وفقًا لمهنته مخرِّيًا للكلاب مع الأمِّ شُولز).

لم يركب هاينرش المواصلات العامة إلا ما ندر؛ أي إذا أراد السفر إلى مدينة بعيدة، وإنما يستخدم درَّاجة هوائية في كل مشاويره البعيدة والقريبة داخل المدينة، كما أنه بعد أن أنجب ابنته الوحيدة ميمي في ٣٠ ديسمبر ١٩٩٥، اشترى درَّاجة خاصَّة بها مقعدٌ مريحٌ لها، وكلما كبرت في السن غيَّر الدراجة بحيث تستوعبها أيضًا. ولأن زوجته نُورا أيضًا تؤمن بأن الدراجة هي خير وسيلة للترحُّل، فلم يجد صعوبة كبيرة في أن يعتمد على الدراجة في كلِّ شيء. وعندما دخلت البنت المدرسة الابتدائية كان لها عجلتها وحدها؛ فلقد «وافقَ شنٌّ طبقَه.» كما في المثل العربي. ويُرَجَّحُ احتفاظه بجسدٍ رياضيٍّ أنيقٍ لبركات الدراجة الهوائية، ولا يُنسى في هذا الشأن ذكر حُبه للعمل واستيقاظه المبكر، ولكنه يرى أيضًا أن عدم إفراطه في شرب البيرة هو الذي هيأ له جسدًا يخلو من الكرش (تقريبًا) إلى هذا العمر الطويل المُعْلن، والحقيقي غير المُعْلن (الأقل نسبيًّا).

بذلك، يمكن بسهولة للقارئ أن يعرف أن هذا اليوم هو نهاية الأسبوع؛ لأنه اليوم الوحيد الذي يقضيه كله هاينرش بالبيت، ولا يخرج منه مهما كلَّفه الأمر، ويستطيع أن يتحايل على البقاء فيه بكل السُّبل. وهو لا يدَّعي المرض مطلقًا؛ لأنه لا ينسى حديثًا للرسول الكريم يحذِّر فيه من ادعاء المرض، يحفظه عن ظهر قلب: «لا تمارضوا فتمرضوا فتموتوا.» ولكنه قد يقول بصورة واضحة إنه تَعِبٌ جدًّا، ويشعر بحاجة للراحة. ولو أن زوجته نُورا وابنته عرفتا عنه تلكَ الصفة البيتية إلا أنهما لم تقتنعا تمامًا لزمن طويل، وظلتا تتجاهلان رغبته تلك، وظلَّ هو يُصِرُّ على بقائه في البيت في اليوم الأول من إجازة نهاية الأسبوع، ثمَّ أصيبت الأسرة كلُّها بداء البقاء بالبيت. وهذا يعني أن البنت موجودة الآن في البيت، ولكنها لسببٍ أو لآخر بقيت في حجرتها، أو ربما لكي تعطي أمها وقتًا كافيًا لإخبار الأب بالتغيرات الجميلة التي تحدث لها، أو أنها تفعل اللازم من أجل استقبال حبيبها. قالت

له الأم: درويش (وهي دائمًا ما تحب أن تدعوه بهذا الاسم؛ لأنها تعلم أنه الأحب إلى نفسه، ولو أنها تنطق «الراء» بصوت أقرب لحرف «الغين»، وأحيانًا تنطقه غينًا تمامًا، فيخرج اسمه من فمها: «دَغْوِيشْ» Derwech، وهو أيضًا يحب أن تناديه كذلك، وفي الأيام التي يكون مولعًا بها، فإن تلكَ الغين تدغدغ قلبه بلذةٍ ساحرة.) اليوم سيحضر توني إلى البيت.

قال منفعلًا: ماذا يريد؟

قالت ببرود: دَعَتْهُ ميمي.

– ولكن كيف تدعوه ميمي بغير علمنا واليوم هو نهاية الأسبوع، ولم نكن مستعدين لذلك؟!

– هي ليست دعوة بالمعنى المعرروف؛ مجرَّد زيارة! إنه لا يحتاج لشيء. تريده ميمي أن يتعرف بكَ أنت بالذات. لقد حدثت الدعوة — كما قالت لي ميمي بعفوية — لم يُخطَّطا لها، كانا يتحدثان في التليفون وقررا فجأة أن يحضر توني، وهذا قد لا يأخذ وقتا طويلًا، وأظن من اللائق تبادل بعض الكلمات مع صديق ابنتك؛ فأنا قابلته مرَّاتٍ كثيرة، وسأعدُّ لكم غداء سريعًا، ثمَّ يبقيان معًا، قد يحتاجان أن يكونا معًا، وأنا وأنت غير مطلوب منا أن نفعل شيئًا سوى أن نبقى أبوين طيبين سعيدين بسعادة ابنتنا الوحيدة.

كانت جُملها غير مرتبة، وتُشعر بأنها مرتبكة، وقد أحسَّ هو أيضًا بأن زوجته ليست طبيعية. همستْ له بصوتٍ أكثر هدوءًا ونعومة: قد تكون تلكَ ليلة ابنتنا الأولى!

قال كمن لدغته عقرب: ماذا تقصدين بليلتها الأولى؟!

قالت وهي تقترب منه: قد يفعلانها.

– ماذا يفعلان؟

قالت وهي تبتسم: لا أدري، ولكن ما يرغبان في فعله، فهما حُرَّان في عمرٍ يسمح لهما بفعل ما هو مناسب لهما.

صمتَ قليلًا يفكر.

حسنًا، أشعر الآن برغبة الراوي في التوقُّف عن السرد قليلًا. وهذه مشكلة الرواية في هذا العصر، بعدما استطاع الرواة، الذين كانوا في الماضي

شخصياتٍ ورقيةً هلاميةً من صنع مخيلة الكُتَّاب، أن يسيطروا على مصائر الأعمال السردية، وتكون لهم كلمتهم ووجهة نظرهم، بل حَكَت لي كلتوم فضل الله (إحدى صديقاتي الكاتبات) أن راويًا خبيثًا في روايتها الجديدة قد تحرَّش بها. بالطبع لم أصدقها. كثيرًا ما يلتبس الأمر على كلتوم، وتضيع عنها الخطوط الفاصلة بين الواقع والخيال، ولكنني لم أستبعد ذلكَ تمامًا، فقد أصبح الرواة — خاصَّة الراوي العليم والراوي من الخلف وضمير المتكلم — سُلطةً فوق سُلطةِ الكاتب الذي كان يظنُّ نفسه — قديمًا جدًّا — الخالقَ الفعليَّ للنص، والمتحكِّمَ المطلقَ في مصائر شخصياته وأدوات سرده التي في مقدمتها الراوي نفسه؛ مما أفقد الكُتَّاب كثيرًا من حيلهم الموروثة، بل ماء وجههم في بعض الأحيان، ومقدرتهم على الخلق والإبداع.

إذن، على رغبة الراوي سنتوقَّف هنا قليلًا، وسيأخذنا إلى ما يدور في مخيلة درويش أو هاينرش في هذه اللحظات، وكيف أن الرجل جَالَ بخياله وَصالَ. ولكن قبل ذلك، من المفيد أن نوضح أن هاينرش قد وضع في شفتيه ابتسامةً عريضةً، وأنه قال وكأنه في غيبوبةٍ أو نومٍ مغنطيسي ما يعني أنه سعيدٌ جدًّا، وأن زوجته نُورا فهمت ذلك.

كان الليلُ مضاءً بقمرٍ نصف مكتمل، ونسبةً للأشجار الكثيفة، فإن ظلالها تجعل الليل شبه مظلمٍ. القرية كعادتها تنام مبكرًا، تبقى الكلاب وحدها مستيقظةً حتى ساعة متأخرة من الليل، ولا يتوقع أحدهم أن فردًا من أسرته خارج مرقده، إلا إذا كان في سفرٍ وعاد متأخرًا، أو كان في احتفالٍ بمناسبةٍ ما. وكثيرةٌ هي المناسبات التي تُقام في القرية في هذا الموسم بالذات؛ أي موسم ما بعد حصاد الذرة. ولكن نسبةً للحالة النفسية العابرة التي يمرُّ بها درويش، فهو لم يحتج لحبكةٍ دراميةٍ جيدةٍ تبرِّر خروج ابنته في هذا المساء، وبقاءها إلى تلكَ الساعة من الليل خارج المنزل، بل لم يحتج إلى أن يتخيل حفلًا قرويًّا بهيجًا في أحد أطراف القرية لدى بعض الأقارب، ذهبت إليه البنت وعادت متأخرة، أو أيًّا من الحيل السردية؛ فهو غالبًا ما يصف نفسه بأنه علميٌّ وله خيالٌ محدود؛ لذا عمل عقله بصورة مباشرة: ابنته ميمي تتمشى في الطريق الذي يمرُّ عبر الحقول. كان القمر — كما ذكرنا في بداية هذه الفقرة — نصف مكتمل، والأشجار العالية الشوكية

تصطفُّ على جانبي الطريق كأنها جنود أسطورية تقوم بحراسة المشاة، تنمو بينها نباتات الحسك والبوص وبعض الأعشاب الموسمية الصغيرة، تعشِّش تحتها الفئران الكبيرة الحجم التي تنشط ليلًا، عندما تخلو الطرق من المارة الذين قد يصطادونها إذا ما وقعت عليها عيونهم الشرسة. لا أحدَ يأكل الفئران في القرية، ولكن لا أحد يستطيع أن يقاوم متعة قتل الفئران؛ فهي في كل الأحوال عدوٌّ ومضرَّة بالزرع والممتلكات الشخصية، ويُشاع بين السكان أنها السبب الأساسيُّ لمرض الطاعون وفيروس الكبد الوبائي أو ما يسمونه اليرقان.

هذا المكان الذي تخيَّله موجودٌ بالفعل في قريته؛ أي إنه لم يجتهد كثيرًا في استدعائه، ولكن أيضًا علينا هنا توضيح أن في هذا المكان — الذي تسير فيه ابنته الآن — ذكريات كثيرة، بعضها جميل وبعضها غير محبب إلى نفسه، وهو دائمًا ما ينسى تلكَ التجارب المُرة غير المستحبة، وقد يحتفظ بالجميلة. ولكن الراوي العليم بكل شيء — كما هو الآن في هذه الرواية — يعرف حدثًا مهمًّا وقع لدرويش في هذا المكان بالذات، ولقد نسيه درويش تمامًا، وإذا خطر بباله ذات يوم عندما تمارس الذاكرة ألاعيبها الصغيرة على البشر وترميهم بأثقالها، قد يظن أنه حدَثٌ وقع لشخصٍ ما آخر لا تربطه به صلة؛ فابنته تمشي بصورةٍ عَجِلةٍ وهي تتلفَّت خلفها بين الفينة والفينة كما يفعل الناس عادةً بينما يسيرون في الظلام في مواقع المخافات، ثمَّ تتخذ طريقًا جانبيةً صغيرةً عادةً ما يتجنبها القرويون بالليل. وهي ذات الطريق التي وجَد فيها هو نفسُه قبل ثلاثين عامًا رجلًا غريبًا عن القرية مقتولًا، تبين فيما بعد أن أخاه الأصغر هو الذي قام بقتله لسببٍ تعلم به كلُّ القرية، ما عدا الراوي العليم بكلِّ شيء. طبعًا لم يبلغ عنه الشرطة حتى يكفي نفسه شرَّ الأسئلة البوليسية اللئيمة، طالما أن بعضهم سيفعل في وقت ما، ولكن في الحقيقة لم يفعل ذلكَ أيٌّ من سكان القرية، وبقي الرجل هنالكَ لزمن طويل جدًّا. نهشت جثته الكلاب والقطط السائبة، أكلت منه النسور وبعض الغربان، إلى أن تعفَّن، ثمَّ تحلَّل، ثمَّ أصبح هيكلًا عظميًّا، وبعد ذلكَ أسهمت الريح والأمطار والحكايات وصروف الدهر في

بعثرة ما تبقى منه في الأزمنة والأمكنة، ولكن عُرِفَ ذلكَ الممر الضيق بـ «ممر الرجل المقتول».

درويش يرى الآن أن هذه القصة ليست سوى إحدى الأساطير التي يختلقها العقل الجمعي ذو الخيال الخصب المنفلت في أحايين كثيرة، ولكن الراوي هنا يؤكد أنها حدثت بالفعل. لولا أن حكاية هذا الرجل المقتول ليست هي موضوع السرد لانبرى الراوي في الإتيان بالأدلة التي تؤكد وجهة نظره بطريقة فنية مقنعة للقارئ، بل لكاتب الرواية نفسه؛ لأن كاتب الرواية يميل لظنون البطل الأساسي درويش، بالتالي هو يشك في حدوثها.

كانت ميمي فتاة بيضاء، ليست مثل أمها، ولكنها ليست في لون الأب الأسمر، وهي نحيفة على نموذج صديقاتها العصريات، لها شفتان مكتنزتان، أو كما يحلو لبعض الرواة القول: «مثل كرزتين كبيرتين.» وهو الشيء الذي يُميِّزها ويجعلها أكثر جمالًا من كثيرات حولها، طويلة ولها شعرٌ شديد السواد، ولكنها هنا كانت في لونه؛ أي بُنيَّة بدينة. تلبس جلبابًا قرويًّا جميلًا، لها شعرٌ ذهبيٌّ قصير، تفوح منها رائحة عطرٍ بلديٍّ أقرب لعبق الياسمين؛ إنه يغمر أنفه الآن.

عندما سمعتْ البنتُ هاتفًا يناديها أسرعت الخُطى، تلفَّتت للمرة الأخيرة، ثمَّ مضت في اتجاه الصوت بينما زادت دقات قلبها، وتعرَّقت كفُّها وهي تحسُّ بنشوة عارمة تجتاح كلَّ خليةٍ من خلايا جسدها؛ خليط من الخوف والشعور بالأمان، وهو الإحساس المجنون الذي ينتاب المرأة عندما تلتقي برجلٍ على انفرادٍ أول مرة، ذات مساء به نصف قمر، في الزقاق الذي تنمو أعشابٌ موسميةٌ على جانبيه، المتفرع من الشارع العام الذي يطلق عليه القرويون اسم «طريق الرجل المقتول».

قطع حبل خيالاته صوت زوجته نُورا وهي تسأله إذا كانت لديه رغبةٌ في تناول بعض القهوة، أجابها بكلمةٍ واحدة: «اشناب» schnaps.

قالت مندهشة: هل تشرب اشناب بالنهار؟! ماذا حدث لك؟

قال كمن يتحدث في الحلم: احتفالًا بالمناسبة السعيدة.

قالت وهي تمضي نحو دولاب الخمور: أنا أيضًا سأتناول البعض معك. إنه يوم غير عادي. دعنا ننتشي قليلًا.

نريد أن نوضح هنا شيئًا آخر، وهو أن هاينرش يخاف من ردود أفعال زوجته وابنته، ويثق تمامًا بأنهما قد لا تتردَّدان في رميه في الشارع في أية لحظة، بعيدًا عن البيت الذي يمتلكه هو وحده، وهذا ليس مجرَّد تخيل منه، ولكنه حدث بالفعل قبل خمسة أعوام، حينما دخل في ثورة غضب — وهي الأخيرة بالطبع — وضرب ابنته في خدِّها بظهر كفه، وما كان من الأم إلا أن استدعت رجال الشرطة الذين أخذوه مباشرة للحبس، وتم حرمانه من الاقتراب من بيته حتى إشعار آخر. أعادوه بعد شهرين، وأُدْخِلَ في برامج متابعةٍ نفسيةٍ شديدةِ القسوة لعام كامل، وأصبح يؤمن بحقيقة تلكَ المقولة الشهيرة هنا، حول من لهم أولوية الحماية، كالآتي: «الأطفال أولًا، ثمَّ النساء، ثمَّ الكلاب إذا كان بالبيت كلب، أو القطط في حالة عدم وجود الكلب، ثمَّ الرجل.»

الحمد لله أنه لم يكن لديهم كلب بالبيت ولا قط، (فقد تخلَّص من الكلبين اللذين ورثهما من المرحومة أم زوجته نورا؛ السيدة لُوديا شُولز، عندما كان يعمل معها مُخَرِّبًا للكلاب، أودعهما بعد وفاتها مباشرة ملجأ الحيوانات الأليفة التي لا كفيل لها.) كما أنه كرجل أجنبي مشكوك في سلوكه ودرجة «اندماجه المجتمعي» Assimilation oder Aufnahme، وتحيط به الظنون؛ فقد يحتلُّ — في هذه الحالة — موقعًا بعد السيارة مثلًا. ولكنه فوق ذلكَ كله يعلم أن نُورا تحبُّه، وابنته أيضًا تحبُّه جدًّا، وهو يحبهما، ولكن القانون لا يراعي أية فضيلة للمحبة، ويعمل بصورة ميكانيكية، وعليه بالظاهر، كما عليه أن يحافظ على الأخلاق الأوروبية المكتسبة عبر سنوات طويلة من نضال الإنسان ضد الظلم والتمييز ضد المرأة ومصادرة الحريات الشخصية وغيرها، أو كما لقنه المُرشد الاجتماعي، وهي خطبة طويلة مملة مكرورة، ولكنها جادَّة جدًّا، وعليه أن يحفظها عن ظهر قلب إذا أراد الاحتفاظ بأسرته.

هنالك أيضًا شيءٌ جديرٌ بالاهتمام؛ وهو شخصية زوجته نُورا. وفقًا لتاريخ حياتها الذي يعرفه جيِّدًا (سيتطرق الراوي لذلك بالتفصيل فيما بعد) عليه أن يحذرها، وألا يركن لما يظهر منها من تعاطف وعاطفة وحسن عشرة وسلوك. في عمقه لا يظن أن الإنسان يمكن أن يتغير بهذه السرعة

الرهيبة من متشرد إلى مستقر. يشبه الأمر لديه تحوُّل محارب غوريللا إلى سياسيٍّ مدنيٍّ في رمشة عين، كما حدث لزوجته نُورا. يحدِّثه قلبه بأن الأمر غير طبيعي، أو أنه لا يفهم كثيرًا في البشر، أو أن الإنسان الأوروبي له بُنية نفسية غير تلكَ التي يعرفها عن البشر عامة. قالت له نُورا وهي تضع كأسًا بها اشناب مقطر من زهرة الهولوندا — ذلكَ ما يفضله دائمًا: بعد خمس دقائق سيكون توني هنا؛ سيصل عند العاشرة.

وقبل أن يردَّ مرَّت ابنته أمامه في اتجاهها إلى الحمام. لم يرَ شيئًا مختلفًا فيها اليوم، ولكنها كانت سريعة في حركتها بعض الشيء (أو كما خُيِّل إليه)، ترتدي فستانًا قصيرًا جميلًا، جديدًا لم يرَهُ من قبل، الجزء الأعلى من صدرها عارٍ تمامًا. حَمْلق فيها قليلًا قبل أن تختفي في الممرِّ الذي يقود إلى الحمام. صَبَّ الكأس كلها في حلقه في جُرعة واحدة، وطلب كأسًا أخرى، ثمَّ دارت في رأسه الدوائر.

كان قد خلد للنوم مثل كل من في القرية، ولكنه استيقظ على صوت ابن عمه «الأمين ود النور» يصيح قرب رأسه، ويطلب منه أن ينهض بسرعة. أخبره بالأمر في ثوانٍ معدودات، وبكلمات محددة وحادة كأنها مُعدَّة منذ قرون لكي تُقال في مثل هذه المناسبة الثقيلة على القلب. لم يستفسر كثيرًا، فقط مَرَّ على حجرة ابنته في الجزء الآخر من البيت. أضاء النور لكي يتأكد من أنها ليست هنالكَ بالفعل، فوجد سريرها خاليًا، ولم يرَ أيضًا حذاءها. مرَّ أيضًا مرورًا سريعًا إلى المكان الذي تنام فيه زوجته، في البرندة الصغيرة التي تقع بين المطبخ وحجرة ابنته. سمع شخيرها، وهو عادة اكتسبتها بعد أن أصيبت في أنفها في حادث صغير قبل عدة أعوام. عاد إلى الديوان حيث ينتظره الأمين بعينين محمرَّتين من الغضب، عليهما دموع متحجِّرة حامية. على الرغم من الإضاءة الخافتة بحجرته إلا أنه استطاع أن يتبين مدى غضب ابن عمه وتأثره بالحدث، وهو ما يجب أن يكون عليه وجهه في تلكَ اللحظة الفاصلة في الحياة؛ حيث إن شرف الأسرة يغوص عميقًا في الوحل، الفضيحة التي سوف لا يغسلها غير الدم، قال جملة واحدة سريعة وكأنه يخاطب العالم كله الذي يبحلق فيه الآن، وينتظر ردَّ فعلٍ شجاعًا وتاريخيًّا منه هو بالذات، وفي هذه اللحظة: سندفنهما أحياء.

بينما كان يأخذ سكينته الكبيرة من تحت المخدة، ويمتشق عصاه وبطاريته، خرجا وهما يهرولان في صمتٍ ظاهريٍّ وضجيجٌ عنيفٌ في صدريهما نحو الزقاق الذي تنمو أعشابٌ موسميةٌ على جانبيه، المتفرع من الشارع العام الذي يطلق عليه القرويون اسم «طريق الرجل المقتول».

مُخَرِّي الكِلاب

عَبَّر الراوي عن رغبته الآن في أن يعود لجملة تمَّ ذِكرها في الفصل الأول ومَرَّ عليها مُرورًا سريعًا، سننقلها هنا كما هي:

> فقد تخلَّص من الكلبين اللذين ورثهما من المرحومة أم زوجته نورا؛ السيدة لُوديا شُولز، عندما كان يعمل معها مُخَرِّيًا للكلاب، أودعهما بعد وفاتها مباشرة ملجأ الحيوانات الأليفة التي لا كفيل لها.

في الحقيقة تُوجد هنا كلمة تُثير الارتباك كثيرًا؛ وهي كلمة «مُخَرِّي»، ومصدرها «خِراء»، ونستخدمها هنا للمعنى الحرفي لها؛ أي الشخص الذي يأخذ الكلاب إلى خارج البيت لكي تتمشى وتقضي حاجتها، ثمَّ يقوم بتحمل برازها في كيس بلاستيكي ويلقي به في المكان المخصص لذلك، وهو سلال معدنية أو بلاستيكية تُوجد على جوانب الطرقات معلقةً على أعمدة. وغالبًا ما يقوم بهذا العمل صاحب الكلب نفسه الذي يجد تسليةً ومتعةً في التمشي مع كلبه المفضل، وإشباعًا نفسيًّا لقيامه بالواجب تجاه حيوانه الذي في الغالب في مكانة الصديق المُقرَّب، وفي ظروف كثيرة الحبيب الوحيد، كما كان الحال لدى «أدولف هتلر». ولكن وجود تعبير مُخَرِّي الكلاب هنا يُقصَد به شيءٌ مختلفٌ قليلًا، أي يُستخدم كوظيفة تخص السيد هاينرش؛ فهو عندما جاء إلى النِّمْسَا عمل بهذه الوظيفة باعتبارها أول وظيفة أتيحت له بكرم سخي، وهي ليست وظيفة سهلة لرَجُلٍ صورة الكلب في مخيلته

حيوان نجس يجب عليه تجنُّب لَمْسِه؛ فكيف يكون الحال في حمل خِرائِه وتمشيط جلده وملاطفته؟!

قد ورد أيضًا في هذه الجملة اسم السيدة «لُوديا شُولز»، ولكي نتحدث عن هذه المرأة الطيبة، لا بدَّ أن نعود إلى الوراء قليلًا؛ أقصد أن يقوم الراوي العليم بإخبارنا عن كيف وصل حسني درويش جلال الدين الصيدلاني، من أسيوط بصعيد مصر إلى مدينة «سالزبورج» Salzburg بالنمسا، والظروف الغريبة التي وجد نفسه فيها في بلد المهجر. والقصد هنا تبرير عمله مُخزِّيًا للكلاب لدى السيدة شُولز، أكثر مما هي لعبة «فلاش باك» flashback يستمتع بها الراوي مع تواطؤٍ فعليٍّ ومفضوحٍ من قبل المُؤلِّف.

قبل عشرين سنة؛ أي بعد أن تخرَّج في كلية الصيدلة بدرجة الامتياز في جامعة أسيوط عند عمرٍ يناهز خمسة وعشرين عامًا، قضى درويش فترة الامتياز في صيدلية حكومية بالمستشفى المحلي؛ حيث قابل الشخص الذي غيَّر مجرى حياته تمامًا، إثر حوار قصير جدًّا، لن ينساه أبدًا.

قال له الرجل القصير البدين، الخمسيني، ذو الرأس الأشيب، الذي يبدو عليه الإرهاق الشديد: أريد عقارًا منوِّمًا يا دكتور.

– للأسف هذا العقار لا يمكن صرفه إلا بشهادة طبيب.

– أرجوك! أنا لم أستطع النوم منذ ثلاثة أيام؛ منذ أن حضرت لهذه البلاد اللعينة. أرجوك أن تساعدني، لا أريد أن أذهب للطبيب، لا أتحمل سخافاته وأسئلته ونصائحه التي لا تفيد في شيء بينما كل ما أريده مجرَّد «منوِّم».

– من أين أتيتَ أنت؟

– من السويد، جئتُ للاطمئنان على أمي.

– أريد أن أذهب أنا أيضًا للسويد أو أية دولة أوروبية أو أمريكية. الحياة هنا تعني العدم، خاصَّة بالنسبة للشباب؛ فأنا لا أعرف بعدما أقضي فترة الامتياز ماذا أفعل بحياتي.

– الأمر صعب جدًّا، ولكنه سهلٌ لشابٍ شجاعٍ ولديه طُموح، ولكنكَ أيضًا قد تتعرض للموت قبل أن تصل؛ الطريق إلى هنالكَ تحفُّها

المخاطر: مافيا، تجار بشر، مهربون، بحار، وأمواج، ولصوص، وأسوأ شيء: عليكَ أن تبقى في دولة اسمها «اليونان» لبعض الوقت.

وأضاف بصورةٍ جادة: كلُّ التسامح والجمال الذي في روايات «نيكوس كازانتزاكس» لا تصدقه؛ إما أنه خيال، أو أن الشعب اليوناني الذي كتب عنه نيكوس لا وجود له الآن.

ولكن درويشًا لم يقرأ نيكوس كازانتزاكس، بل لم يسمع بـ «زوربا» اليوناني؛ بالتالي لم تكن لهذه الجملة أي معنًى لديه. ثمَّ أضاف الرجل وهو يضع كمية كبيرة من المنوِّم في جيب سترته، ويربِّت عليها براحة كفه ليتأكد من أنها هنالك: ولكنك عندما تصل إلى أول دولة أوروبية أخرى سوف تنسى كل شيءٍ وتعيش كإنسان؛ إنسانٍ حقيقي.

ومنذ تلكَ اللحظة بدأ درويش في الإعداد للهجرة عبر خارطة الطريق التي رسمها له الرجل بدقة، وخلال بعض العناوين وأرقام التليفونات التي تخص المهربين تمكن من إيجاد أول الخيط؛ أي الرجل الذي سوف يستقبله في ليبيا، المبلغ المطلوب، والوسيط المحايد. ومن الرجل أيضًا عرف كيف يتجنب بعض الشريرين والمتطرفين من اليونانيين وتحرشهم؛ لأن رحلته ببساطة قد تنتهي هنالكَ بقتله أو بتعفنه في سجن لا عنوان له.

درويش، كعادته كان محظوظا جدًّا؛ حيث إنه حصل على جواز مزور في مصر وعليه تأشيرة صالحة لليونان، ولو أن الأمر كلفه بيع فدانين من أرض زراعية خصبة ورثها من جده لأمه، إلا أنه لم يندم لذلك، بل ابتسم ابتسامة كبيرة عندما وجد الوسيط ينتظره على استقبال مطار أثينا، ويسلمه نصف ثمن الجواز نقدًا؛ حيث يقوم باستخدامه مرة أخرى لتخليص شخصٍ ما من براثن فقر العالم الثالث إلى مراتع الحلم بأوروبا.

لم يعرف إلى اليوم الاسم الحقيقي للوسيط الذي كان صريحًا معه عندما قال له بعربيٍّ فصيح ولكنه شاميٌّ: «يمكنك أن تدعوني راشد، أو ما شئت.» ثمَّ انطلقا في عربة تاكسي، عبرا شوارع كثيرة واسعة وبعضها ضيق، مرَّا بمبانٍ جميلة مشيدة بطراز لا يعرفه، ولكنه كان عبر النافذة يحاول أن يرى شيئًا من حضارة اليونان التي قرأ عنها في المدارس. أما ما كان يهمه أكثر فهو أن يتمعن في ملامح الناس؛ تلكَ الأوجه التي تعبرها العربة

في سرعة بالغة، وتمر مثل الطيف أمام وجهه الملتصق على زجاج النافذة، يريد أن يتبين أيهم الشرير الذي حدثه عنه ذلكَ الرجل قبل شهور كثيرة بأسيوط عند الصيدلية، وكيف تبدو تلكَ الوجوه وهي تهم بالانقضاض عليه والتهامه.

كانا صامتين، وفضَّل هو هذا الصمت على كلام قد ينبه سائق التاكسي إلى حقيقته، وكان أيضًا خائفًا من شيءٍ ما لا يدريه، ربما لأنها هي المرة الأولى التي يسافر فيها خارج مصر، وهي أيضًا المرة الأولى التي يرتكب فيها أمرًا غير شرعي يُحاسب عليه القانون؛ فاستخدامه لجوازٍ مزورٍ فكرة تثير فيه الرعب كلما تذكر كيف كان يرتجف في دواخله، وترقص عضلات بطنه رعبًا وهو يدخل مطار القاهرة ويقدم جوازه لموظف المطار، وكيف أن نظرة الموظف إليه أربكته إلى الدرجة التي أصبح فيها أهون عليه أن يصرخ قائلًا: «إنه جواز مزور، خذوني!» من أن تبقى عينا رجل الجوازات عالقتين في وجهه مثل أشعة الليزر الموجهة، ولو أن تلكَ النظرة لم تبقَ سوى خمس ثوانٍ، إلا أنه أحس بها سنوات طوال، إلى أن صعد للطائرة. كان ينتظر أن يأتي رجل شرطة ويأخذه للحبس. وعندما بدأت الطائرة في التحرك من الأرض، ثمَّ الإقلاع، أحس للمرة الأولى في حياته أن الله وملائكته ورسله بل وجميع الشياطين يقفون في صفه تمامًا، يساندونه ويدفعونه للأمام، فبكى.

والآن بدأ يخاف من جديد؛ يخاف من اليونانيين، لا يريد أن يموت هنا أو يتعفن في السجن، أو أن يُصاب بعاهةٍ ما، هو يهرب من بلاده من أجل مستقبل أفضل له ولأطفاله من بعده، ويريد أن يأتي بحبيبته في أسرع وقت ممكن، فهو أيضًا لا يتصور حياته من دونها، ولا يرغب إطلاقًا في أن يعوق حياته بعض المتطرفين غير المسئولين، الذين لا يرون فيه غير ضحية بشرية تصيبهم بمتعة بالغة وهم يؤذونها. ولكن هذا المُسمَّى «رشيد» الذي يجلس قربه بثقة بالغة ورباطة جأش، الذي يبدو متأكدًا من كلِّ شيءٍ في الدنيا وكأنه الله ذاته، يبعد عنه المخاوف بمجرد جلوسه، بمجرد سكونه، بمجرد القوة والثقة العظيمة التي تبدو على مُحيَّاه، بمجرد أنه صامت ولا يتحدث.

أوقف سائق التاكسي فجأة، أعطاه بعض النقود، وعندما اختفت آثار العربة، تحرك على إشارته، عبرا شارعين عن طريق كوبري للمشاة صغير. كان الكوبري مزدحمًا بالمارة، ولدهشته رأى أن هنالكَ سحنات كثيرة من البشر تسير في أمان؛ بيض، وسود، وصفر، وحمر، وبُنيين. واستطاع أن يميز بعض السودانيين والمصريين والصينيين أو من يشبهونهم من سحنات آسيوية وأفريقية. بالطبع كان هنالكَ اليونانيون، لم ينتبه إليه أحدٌ، بل لم ينظر إليه أي من المارة ولو لثوانٍ معدودات، كتلك النظرات التي رشقه بها ضابط الجوازات في القاهرة أو رصيفه في مطار أثينا، كلهم مشغولون، يسيرون بسرعة إلى أمكنة ما، مهمومون بأنفسهم. كان كل شيءٍ يمضي طبيعيًّا، وليس هنالكَ فرق كبير بين الناس كما رآهم في القاهرة وكما يراهم الآن هنا في أثينا. كان يحمل حقيبة يدٍ صغيرةً جدًّا، وهو ما نُصح به، فيها بنطلون واحد وقميصان، وفرشة أسنان ومعجون، وبلوزة قصيرة من القطن مهداة من حبيبته، وكتاب في الصيدلة. وضع الحقيبة جنبه وهو يجلس على كرسيٍّ صغيرٍ من الخشب. كان راشد قد جلس قربه يقدِّم له بعض النصائح بدقة:

- عليك ألا تخرج من هذا المكان إلا وأنا معك، أو أن يأتي شخص ويسألكَ قائلًا: أحتاج منوِّمًا وحبوب لقاح. ❀
- كل من في هذا المسكن مهاجرون، ولكن لا تأمن أن يكون من بينهم جواسيس وعملاء بل ومجرمون؛ لا تعطي سِرَّكَ لشخص، وكل ما تقوله هو سر يا رجل، مجرَّد ذكر جنسيتكَ أو اسمكَ أو تاريخ ميلادك قد يؤدي بك إلى ما لا تشتهي.
- حاول أن تكون آخر من ينام وأول من يستيقظ.
- لا تأكل إلا ما قمت بطبخه وإعداده بنفسك، وسأسلمك ما تحتاج من طعام الآن.
- إذا حدث وتمَّ القبض عليك، فتأكَّدْ من أنكَ ستكون وحدك، سوف لا تجد من يقف بجانبك، لا أنا ولا غيري، ستسجن لبعض الوقت، ليس أقل من شهرين، وسترسل إلى مصر أو أيِّ بلد ما، وقد لا تصل أبدًا.

- غدًا عند السادسة صباحًا، تحمل حقيبتكَ وتنتظر عند الباب، ونتمنى أن تسير الأمور على ما يُرام. بعد السادسة ودقيقة واحدة بالضبط، إذا لم ترَني أو يحضرْ إليكَ من يسألكَ عن المنوِّم، عليكَ أن تعود لحجرتكَ وتمارس حياتكَ العادية إلى إخطار آخر.

ثم أعطاه كيسًا كبيرًا به بعض الأطعمة، وودَّعه وخرج.

المنزل عبارة عن بناية سكنية كبيرة، يبدو أن معظم ساكنيها آسيويون. كانا قد صادفا البعض وهما يلِجان مدخل المبنى لأول مرة بعد هبوطهما من التاكسي، والتمشي لدقيقتين بالأرجل على طريق ضيقة مرصوفة بالحجارة. الغرفة التي يقيم فيها هي جزء من شقة كبيرة بها عدد من الحجرات لم يتسنَّ له معرفة كم هو، ولكنه قدَّره بخمس أو ست حجرات، وفقًا للأفراد الذين التقى بهم عند المطبخ المشترك أو عند الحمام العام، وبعض الأصوات التي تأتي إليه من هنا وهنالك. ليس بينه وبين الآخرين سوى تحية مختصرة، وهي عبارة عن إشارة باليد، وردُّها بذات السرعة والطريقة، متحاشيًا الدخول في أية حوارات قد تأتي بعد التحية. من بين الساكنين سيدة، وربما لها أكثر من طفل، تبدو من هيئتها ولغتها — حيث سمعها تتحدث مع أحد أطفالها — أنها من فلسطين أو سورية، وهنالك أيضًا رجلٌ رآه يجلس في الصالة الواسعة يدخن سيجارة، له ذقن كبيرة وشعر كث، ويبدو كفيلسوف مخبول، أو مجنون فرَّ من مستشفى الأمراض النفسية والعصبية. حيَّاهُ رافعًا كفه اليمنى، رائحة دخان السيجارة مميزة جدًّا، دخان يعرفه جيِّدًا، مرَّ أمامه في طريقه للحمام، أشار الرجل إليه بأن يأتي إليه، تردَّد قليلًا ولكنه مضى نحوه، أشار إليه بأن يجلس قربه على كنبة طويلة بُنِّيَّة مثل لون الرجل الضخم ذي الرأس الكبير المستدير. ذقنه الكثة تخفي كثيرًا من ملامحه، مدَّ له سيجارةً في صمت، أشار إليه درويش بما يعني أنه لا يدخن، أعادها الرجل إلى عُلبتها في بطء، أخذ يرسل دخان سيجارته في الهواء بمتعة خاصَّة وهو ينظر بعيدًا حيث لا مكان بعينه، يبدو عليه الشرود، قال أخيرًا باللهجة المصرية سائلًا وهو يحملق في وجه درويش: من فين أنتَ يا بيه؟

كان سؤال الرجل مفاجئًا تمامًا لدرويش؛ فارتبك، تذكر وصايا راشد له أن كل ما يقوله يقع في خانة الأسرار، كان الرجل قد توقف عن التدخين

في انتظار الإجابة وهو يحملق في وجه درويش، الذي بدَت عليه تقلُّصات الحيرة وهو لا يعرف بما يجيب الرجل، وأخذت تدور الأسئلة في رأسه: «منَ يكون هذا الرجل؟ أهو مخبر أم يريد امتحانه؟ أهو مجنون أم إنسان عادي بسيط؟ ماذا سأقول له؟» وعندما طال انتظار الرجل، ربما ظن أن درويشًا قد لا يعرف اللغة العربية، فألقى عليه السؤال بإنجليزية ركيكة، ولكن بقي درويش صامتًا يحملق في بلادة في وجه الرجل، شارد الذهن تمامًا، تتصارع الأسئلة في دماغه، أضاف الرجل: أنتَ لا تستطيع الكلام؟

تنفس درويش الصُّعَداء، وتأكد له تمامًا أن الله قد قاده لمخرج، أشار برأسه إيجابًا.

قال له الرجل: إذن أنتَ أبكم! معليش، ربنا يشفيك يا أخي.

أشار درويش برأسه علامة الإيجاب، ونهض لكي يذهب، إلا أن الرجل أمسك بيده وأجلسه قربه مرة أخرى، نظر إليه.وهو يقول: ماذا ستفعل في أوروبا؟ كيف تعيش هنالكَ وأنتَ أبكم؟

قام درويش بعمل عدة إشارات لا معنى لها، ألحقها بإشاراتٍ أخرى أكثر إبهامًا، ثمَّ أشار إليه بما يعني أنه يريد أن ينام الآن، ولكن الرجل لاحقه بسؤال آخر: هل أنتَ مصري؟

ها هو يجد نفسه في ورطةٍ أخرى، وهو سؤال لا تحتاج الإجابة عنه إلى كلام؛ فلغة الإشارة تكفي: حَنيةٌ صغيرةٌ للرأس إلى الأمام تعني «نعم»، هزُّ الرأس في اتجاهين مختلفين تعني «لا»، والأصابع أيضًا تجيد قول «لا»، وكلتا الإجابتين تعني إفشاءً للسر. بعد صمتٍ محيِّر، قال الرجل مرة أخرى: احتمال كبير جدًّا سيرحِّلونكَ بالبحر إلى إيطاليا، وعليكَ أن تكون حريصا جدًّا؛ لأنكَ قد تغرق، هل تعرف كيف تسبح؟ ولكن هنالكَ أيضًا أسماك متوحشة شرهة، وفي الشاطئ قد تجد الدورية الإيطالية في انتظاركم، وهي مثل كتيبة من أسماك القرش.

ابتسم فأظهر أسنانًا كبيرةً بُنيَّةَ اللون، قال كمن يوجه سؤالًا إلى نفسه: هل واجهتَ سمكة قرش؟

ربنا يكون في العون. أنا أفضِّل الطيران؛ لذا أنتظر جوازًا وتأشيرةً منذ شهرين وخمسة أيام.

ثم نظر إلى ساعة معلقة في الحائط وأضاف: وساعتين.

صمت قليلًا ثمَّ تثاءب، وضع السيجارة في المطفأة وتركها تدخن في بطء وهي تنطفئ، قال: الانتظار ممل، ولا أحد يريد الحديث هنا، في أيِّ موضوع كان؛ يعتبرون ذلكَ ثرثرة، نعم إنهم يتحدثون ولكن بتحفُّظ، لا يقولون لك شيئًا ذا فائدة، وأنت رجل طيب، ولكن — للأسف — لا تتكلم، قد تجد علاجًا لحالتك في أوروبا. حاول أن تصل السويد بأية طريقة كانت؛ السويد يرحبون بالأفارقة. إنهم شعب عظيم، إلا أن لغتهم لا فائدة منها تُرجى، ولكن ما يهمُّ وأنت لا تتحدث أية لغة؛ فالأمر واحدٌ بالنسبة لك. أنا أريد أن أذهب للسويد؛ لديَّ أقارب هنالك. أنا أصلًا إريتري، هربتُ من السجن في «أغردات»، عشت في مصر فترة وفي السودان، اسمي «صلاح سعد»، من مدينة «كرن»، زوجتي وبنتي ما زالتا هنالك. كنتُ أعمل في الصحافة فاتُّهمتُ بالتجسس، كله كذبٌ في كذب، ولكنهم ضربوني ضربًا شديدًا في رأسي إلى أن اعترفتُ بأفعالٍ كثيرة لا حصر لها لم أقم بها ولم أسمعها، بل لم تخطر على بالي مطلقًا، ثمَّ ضربوني مرة أخرى لأنني لم أجد مبررًا مقنعًا لقيامي بها، واعتقد بعضُهم أن بعضَها ليس سوى كذبات. تحت شعر رأسي الآن أخاديد من الجروح القديمة هل ترى؟ هل ترى؟ (وقام بإزاحة شعر رأسه الكثيف بأنامله لتظهر آثار الجروح عميقة) حدث هذا قبل عامين، ولكني ما زلتُ أراهم كل ليلة يضربونني، لولا «البنقو» لما استطعت الحياة! هل تحبُّ البنقو؟ هنا يوجد بنقو بأسعار معقولة جدًّا، أنا أدخِّن نوعًا خفيفًا، خفيفًا جدًّا، أطلب لك علبة؟

عندما لم يجبه درويش (أو أنه لم ينتظر إجابة من درويش) واصل الكلام: أحيانًا أصاب بدوخة، ولكني الآن في صحة جيدة.

صمت قليلًا ثمَّ قال فجأة: هل رأيت المرأة؟ لا، لا، ليست المرأة أمَّ الأطفال، لا، لا، أمُّ الأطفال إنسانة راقية وفاضلة، لو كنتُ أمينًا عامًّا للأمم المتحدة لأعطيتُها الخيار في أن تختار جنسية البلد الذي ترغب فيه. حرامٌ أن تُولد مثل هذه المرأة في العالم المتخلف الذي لا يعرف قيمة الإنسان. أنا أقصد الأخرى؛ إنها فتاة جميلة جاءت إلى هنا قبل أسبوع، إنها منحلة أخلاقيًّا. لقد حاولتُ ممارسة الجنس معها مرتين، ولكنها رفضتني من

دون مقابل، وأنا ما عندي نقود؛ كل النقود مع الوسيط. حاولتُها مرتين أو ثلاث مرَّاتٍ — لا أذكر — ثمَّ تناسيتُ أمرها. أنا شخص غير مِلْحَاح. هل معك نقود؟ أقصد بعض النقود. إذا كان لديكَ نقود فإنها لا تمانع أن تبيت معكَ الليلة. يمكنني أن أخبرها لكَ طالما كنتَ لا تتكلم، سأقدم لكَ مساعدة في هذا الشأن، فنحن رجال ونعرف حاجات بعضنا البعض، النساء يا صديقي فاكهة الليل. هل أذهب لأطلب منها أن تأتي؟ أنا لا آخذ مقابل ذلكَ شيئًا؛ إنها خدمةٌ لصديق، مجرَّد خدمةٍ لا أكثر، فإذا كان معكَ عشرة دولارات فهي تكفينا نحن الاثنين. هي لا تمانع في ذلك.

نهض درويش من قربه. حاول الرجل الإمساك به، ولكنه أفلت من قبضة كفِّ الرجل القوية ومضى نحو حجرته، أغلقها خلفه جيِّدًا، وحاول أن ينام. كانت الساعة التي بالحجرة تشير إلى الثامنة مساءً، ويبدو أن الجميع مستيقظون. كانت تأتيه الأصوات من عمقٍ سحيقٍ بالمكان؛ صوت المرأة ذات الأطفال، بكاء طفلٍ بين فينةٍ وأخرى، «صلاح سعد» يتحدث مع شخصٍ ما أو أشخاصٍ ما. أخرج كتابًا في الصيدلة وأخذ يقلب الصفحات بصورة اعتباطية، وحينما سمع طَرقاتٍ على باب حجرته نهض مذعورًا، ولكنه لم يفتح الباب، بل وقف خلفه يتحسس ما بالجهة الأخرى، ثمَّ طُرِقَ البابُ مرة أخرى، كانت النَّقراتُ خفيفةً جدًّا؛ مما جعله يستبعد أن الطارق رجالُ الشرطَة، كما أنه استبعد أيضًا أن يكون الطارق ذلكَ الملتحي المجنون؛ لأن مثل تلكَ الشخصية لا يمكن أن تطرق الباب بهكذا هدوء، ومرَّ بخاطره أن تكون هي الصبية التي تحدث عنها الملتحي. «نعم، قد تكون هي، هل أقنعها؟ هل أرسلها إليَّ؟ إذا طَرَقت الباب مرةً أخرى سأفتح لها.» سمع لجب أقدامٍ تمضي بعيدًا؛ أقدام ثقيلة. انتظر لدقائق أخرى، أطفأ النور، رقد على سريره، وضع الغطاء الثقيل على جسده كله، ترك وجهه مكشوفًا ونام. حلم بـ «قضاة أرسطو»؛ هكذا أطلق عليهم في الحلم. هم شيوخ يونانيون يلبسون ملابس حمراء اللون، يركبون بغالًا كبيرةً لونها أسود، يحملون نبالًا وأسهمًا على أكتافهم، وهم يقودونه عبر حبلٍ طويلٍ جدًّا، للدرجة التي لا يستطيع معها أن يرى آخِرَ فردٍ منهم بصورة جيِّدة، ثمَّ توقفوا به عند العراء؛ منطقة شبه صحراوية

بها أعشاب وأشجار عملاقة ولكنها جافة، وتركوا عليها غربان سوداء وبيضاء. حلوا أنشوطة الحبل من ساعديه.. خلعوا ملابسه وألبسوه حُلَّة حمراء كالتي تُلبَس للسجناء المحكومين بالإعدام. قال له كبيرهم ذو الذقن الكثة والشعر الطويل؛ الرجل الذي يشبه ذلكَ الشخص الإريتري، بل لحدٍّ ما هو ذاته، قال له: أنتَ الآن تَمثُل أمام محكمة شعب اليونان؛ فأنتم أيها المهاجرون السفلة تعوقون تنمية بلادنا، وتسرقون ثرواتنا، وتوسخون أرضنا؛ لذا سنحكم عليكَ بالإعدام، ولكن رأت المحكمة الموقرة أن تعطيكَ فرصة للنجاة.

طلبوا منه أن يهرب للجهة التي يريدها، وأنهم سوف لا يبحثون عنه إلا بعد نصف الساعة بالتمام، فإذا لحقوا به فإنهم سوف يصلبونه في إحدى الشجرات اليابسات، ويتركونه وجبةً شهيةً للغربان، وإذا لم يجدوه في خلالها؛ فإنه حرٌّ طليق.

وانطلق يجري، ولكن فجأةً توقفت رجلاه عن الحركة، وأصبح في حالة شللٍ تامٍّ، كانت أُذناه تلتقطان دقات الساعة التي تمضي متسارعة، وتتحرك في مشهدٍ سينمائيٍّ رقَّاصاتها عكس الدوران الطبيعيِّ لها نحو نهاية كُتِبَ عليها: «ثلاثون دقيقة»، وخلفه — ليس ببعيد عن ظهره — يجلس أعضاء المحكمة على الأرض يحتسون العرق ويطلقون الضحكات. كانوا عراةً تمامًا كما ولدتهم أمهاتهم.

استيقظ مبكرًا كعادته، عند الخامسة والنصف صباحًا. تسلل إلى الحمام، كان قلقًا، ليست لديه أية رغبة في أن يقابل أيَّ مخلوقٍ كان، خصوصًا صلاح سعد، ولكن كان الرجلُ موجودًا على الكنبة يدخن سيجارة بهدوءٍ في الوضع ذاته الذي تركه عليه بالأمس، وكأنه لم يذهب للنوم، أو أنه يسكن في المكان؛ بل جزء من أثاثاته القليلة. ألقى عليه التحية بحركةٍ من يده، وقبل أن يتبين ردَّ الرجل حشر نفسه في غرفة الحمام، خلع جُلَّ ملابسه بسرعة، أحسَّ بأن دقات قلبه تتلاحق، وأنه خائف؛ خائفٌ من كل شيء: لماذا يخاف، ما هو أسوأ ما سيحدث له؟ الموت؟ هو سيموت في يومٍ ما، مثله مثل كل المخلوقات، حتى القتلة العتاة سيموتون؛ مات هولاكو، مات جنكيزخان، مات هتلر، مات نيرون، مات فرانكو، مات الحجاج بن يوسف،

وغيرهم ممن لم تُعِنه الذاكرة على استحضارهم الآن. مرَّ بخاطره شطر بيت شعرٍ لا يدري لمن هو، حفظه منذ أيام الدراسة:

وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمَوْتِ بُدٌّ فَمِنَ الْعَارِ أَنْ تَمُوتَ جَبَانَا

ما الذي أتى بذكرى الموت الآن، من هو ذلكَ الجبان؟ كان مرتبكًا جدًّا، ويبدو أن آثار حلم الليلة السابقة ما زالت تُحرِّكه من اللاوعي. عليه أن يفعل شيئًا من أجل نفسه؛ من أجل إنسانيته المهدرة. فتح الدشَّ بأقصى طاقة، فتح فمه واسعًا، جذب أكبر قدر من الهواء، ملأ به رئتيه جيِّدًا، ثمَّ لم يتردد لحظةً واحدةً، ولم يفكر أيضًا. غنَّى، نعم غنَّى — بأعلى صوتٍ وهبه إياه الخالق، وباركته الملائكة في تلكَ اللحظة — أوَّلَ أغنيةٍ خطرت بباله:

No women
No cry
Do you remember?
When we use to sit
In the government yard
Of Trench town?

إلى أن سمع طرقاتٍ عنيفةً على باب الحمام، فخرج عاريًا؛ ليجد صلاح سعد والمرأة وطفليها، سيدة أخرى سمراء سمينة، شخصين آخرين غريبين في ملابس النوم، كانوا مندهشين ينظرون في استغراب إلى الرجل الأبكم الذي يغنِّي الآن. ابتسم ابتسامةً واسعةً تكفي الجميع، أغلق الباب، أكمل حمامه في صمت، خرج، مضى نحو حجرته. صلى صلاة الصُّبح إلى قِبْلَةٍ اختارها عشوائيًّا، جمع أشياءه، أصلح السرير، حملق في ساعة الغرفة، كانت السادسة إلا دقيقة واحدة، خرج ينتظر راشدًا أو مَن يسأله: «هل لديك حبوب منوم وحبوب لقاح؟»

درويش

تردَّدتُ كثيرًا في كتابة هذا الجزء بالذات من حياة حسني درويش؛ لأنه يتعلق بنظرة درويش لنفسه الآن، وهو لا يحبُّ أن يُظهِره في حياته لأسباب تتعلق بالفضيلة الإنسانية أو ما يراه فضائل. ومن حقِّه أن يُشكِّل الصورة التي يُحبُّ أن يكون عليها، كما أن الخلفية الدينية له تلعب دورًا مهمًّا؛ فالتاريخ المُتغاضَى عنه في حياة درويش هو انتماؤه للجماعات الإسلامية في سنواته الأولى بجامعة أسيوط، ولو أنه تركهم بلا عودةٍ بعد أن تمَّ اعتقاله وتهديده بالخصي، وهي أسهل طريقة يتبعها رجال الأمن لإقناع الأفراد الذين يصعب إقناعهم بالمنطق السياسي السليم، ولو أن أفكاره أيضًا حدث بها بعض التغير الذي يصفه بالإيجابي؛ لأنه ما عاد يرى البشر إما كفارًا أو مسلمين، ومن واجبه إرشاد الكافرين الضالين إلى جادة الصواب أو قتلهم في حالة إصرارهم على غيِّهم. ولكن من الخطأ تجاهل البُنية الدينية وأثرها في تكوين شخصيته طوال حياته، حتى وإن تنكَّر لذلك الآن.

غير الحادثة التي سيقصُّها لنا الراوي بعد قليل، ستصادفنا أخرى أيضًا تتعلق بالخنزير، وقد يحكي لنا القصتين، وفقًا لمزاجه؛ فالرواة أصبحوا في هذا الزمن المختل سُلطةً لا يُستهان بها، وأصبحنا بصفتنا كُتَّابًا نعوِّل كثيرًا على أمزجتهم الفاسدة. أظنني حدثتكم من قبل عن ذلكَ الراوي البذيء الذي راود صديقتي الكاتبة كلتوم فضل الله عن نفسها. اعتبر درويش أن الحادثتين ليستا سوى امتحان خشن من الله لشخصه الضعيف.

الراوي أصرُّ إصرارًا بالغًا على وضع النقاط على الحروف، أو كما قال: «إشعال شمعة في ظلامات عقل الرجل.» على كلٍّ، سأحكيه هنا بشيءٍ من التحفظ لا بأس به، أي بالقدر الذي لا يقلِّل من قيمة العمل الفني، أو يخلق ارتباكًا لدى القارئ. في الواقع، سوف لن أهتم إلا بالحقيقة، ولو أن الحقيقة في ذاتها نسبيةٌ كما علَّمنا «ألبرت أينشتاين». في هذه الحالة سأطلق للراوي العنان، وكعادته سيسرح ويمرح، ولكني سأختار من أين يبدأ؛ فرؤيتي ثاقبة في بعض الأحيان. الرواية عمل مشترك ما بيني باعتباري كاتبًا، وبين الراوي والقارئ والشخصيات، قَبِل هو ذلكَ أم لم يقبله؛ لا يغير في حقيقة الأمر شيئًا.

المكان عبارة عن زريبة ماشيةٍ حديثة، في شكل مبنًى أشبه بمنازل الفلاحين. غمرتْ أنفَه رائحةُ روث الحيوانات قبل أن يدخله بأمتار عديدة. كان راشد قد شرح له الفكرة، وطمأنه بأنها الأحسن، وكثيرٌ من المهاجرين لا يجدونها بسهولة؛ فالبعض يُرَحَّل تحت الشاحنات ما بين مجمع إطاراتها الخلفية، وكم وكم من أرهقهم التعب وغلبهم النُّعاس فسقطوا على الأسفلت وسحقتهم الإطارات بدون رحمة! هذا إذا لم تقبض عليهم الكلاب البوليسية الشرسة المدربة جيِّدًا على صيد المهاجرين، وانتزاعهم بأسنانها من هنالكَ انتزاعًا: «أنتَ محظوظٌ يا رجل.»

أعطاه أكياسًا بلاستيكية كثيرة فارغة لكي يستخدمها لقضاء الحاجة، وشرح له باستفاضةٍ كيفية استخدامها في حالة التغَوُّط وفي حالة التبَوُّل؛ لأن أيَّ خطأ في الاستخدام يجعل المكان لا يُطاق. أعطاه كيسًا آخر مملوءًا بالأطعمة الجافة وقارورات المياه تكفي لخمسة أيامٍ بلياليها.

مقطورة الشاحنة العملاقة تتكون من طابقين تفصل بينهما أرضيةٌ من الخشب الموسكي، تُرى من الخارج مثل قفصٍ كبيرٍ من الحديد الصلب، به فتحات للتهوية في شكل نوافذَ صغيرةٍ مربعةٍ منسوجةٍ بشبكةٍ من السيخ. هو في الجزء الأسفل قريب من المقدمة؛ أي في القفص الثاني. القفص الأول به امرأة لم يتبين ملامحها للوهلة الأولى، تفصله عنها شبكة معدنية ذات فتحاتٍ كبيرة، ولكن المرأة كانت منكمشةً على نفسها، دافنةً رأسَها بين فخذيها، وشعرها الأسود الغزير يغطي ما تبقى منه.

كان منشغلًا بالخنازير التي في القفص الذي يليه، والقفصين اللذين على جانبيه. لَجَبُ حوافرها في الجزء الأعلى يسمعه مثل طرقات الشاكوش، وتغمر أنفَه رائحةٌ كريهةٌ تصدر من كل الاتجاهات من بول الحيوانات وفضلاتها. هو بطبعه يكره الخنازير، يكرهها حتى إذا لم تتبول أو تصرخ، من قلبه ومن فكره، يكرهها من عمق بنية نفسية واجتماعية شكَّلته طوال عمره؛ فهو لم يرَها على الطبيعة إلا اليوم، ولم يلمسْها في حياته إلى الآن. بالطبع لم يأكل لحمها؛ فهي محرمة في الإسلام، وهو مسلم ملتزم لحدٍّ معقول بتعاليم دينه، ونقول «بحدٍّ معقول»؛ لأن درويشًا يحتسي الخمر وهي حرام وملعونة، وأيضًا لا يتردَّد في ممارسة الجنس خارج الإطار الشرعيِّ كلما وجد إلى ذلكَ سبيلًا، وهو ما يُعتَبَر زنى Adultery في الإسلام، وعقوبته الجلد بالنسبة لدرويش لأنه عازب، والرجم بالحجارة للمحصنين، لكنه يصلي ولا يأكل لحم الخنزير، ولو أن ذلكَ ليس دقيقًا، فقد أكله ولشهرين كاملين، كان وجبة عشائهم المفضلة. بالطبع ما كان يعرف أنه يأكل خنزيرًا، وإلا لفضَّل عليه أية لحوم أخرى. والنوم بلا عشاء أفضل كثيرًا من عشاءٍ مكروه.

في الأيام الأولى لوصوله «فيينا» أقام مع بعض السودانيين في النادي السوداني؛ حيث توجد مساحة للنوم وممارسة الحياة بالنسبة للقادمين الجدد الذين لا مأوى لهم ولم يُسْمَحْ لهم بالعمل بعد، ووجد هنالكَ من الشباب الظرفاء الندماء المتفائلين والمحبطين وغيرهم، واختار شِلَّةً تشبهه كثيرًا؛ حيث كانوا يلعبون الورق نهارًا، وفي المساء يذهبون للديسكو، يحتسون قدرًا كبيرًا من البيرة، قد يصيبون بعض النساء، ويعودون في نشوةٍ وجُوعٍ عارمين، فيمرون على المطعم التركيِّ — وهو المكان الوحيد الذي يثقون فيه. ربما لم تكن تلكَ الثقة سوى ناتج طبيعيٍّ للإعلان الملصق على نوافذ وباب المحل الزجاجيِّ بأنهم يستخدمون «اللحوم الحلال» فقط. دائمًا ما يطلبون شواءً من لحم الضأن، وكان التركي يعدُّ لهم طبقًا منه لذيذًا جدًّا، يلتهمونه وهم سُكارى منتشون. ومضى الحال هكذا، إلى أن أكَّد لهم صديقٌ سوريٌّ كرديٌّ اسمه «جان» أن هذا التركي بالذات يُطعمهم شواء الخنزير، وأن كثيرًا من المسلمين يعرفون ذلك؛ لذا عليهم

أن يتجنَّبوه. طبعًا لم يصدقوا صاحبهم السوريَّ، ولكنهم لم يذهبوا إلى مطعم التركيِّ مرةً أخرى.

«من المفترض أن تستغرق الرحلة يومين.» قالت له الفتاة ذات العينين المتورمتين من البكاء عبر شبكة الحديد باللغة العربية، بلكنةٍ مصريةٍ ممزوجةٍ بلهجات إفريقية غريبة: «يومين كاملين في هذا العفن.»

كان قد أتاه صوتها مختلطًا بصراخ الخنازير ولَجَب حوافرها. في الحقيقة، ما كان يتوقع أنها ستتكلم معه؛ لقد كانت طوال الوقت منكفئةً على نفسها، واضعةً رأسها بين فخذيها، معطيةً إياه ظهرها بصورةٍ تامة، وفهم من ذلكَ أنها لا تحبُّ أن تدخل في أيِّ نوعٍ من التواصل معه، واحترم رأيها الذي قرأه من حركة جسدها، ولا يدري متي التفتت إليه؛ لأنه كان يراقب خنزيرًا كبيرًا في القفص المواجه له يحاول إدخال أنفه عبر فتحات السيخ ولحس قدميه. قال لها، ربما دون تفكير: ربنا يستر.

قالت له وهي تحملق فيه بعينين محمرَّتين: إنه لا يفعل ذلكَ كثيرًا.

قال مندهشًا: من؟

قالت وهي لم تُحوِّل عينيها عنه: الله.

سكت قليلًا، قال محاولًا أن يكون منصفًا: إنه وقف لجانبي في مراحلَ كثيرةٍ من حياتي.

قالت بمستوى صوتها ذاته: لقد خذلني أنا كثيرًا جدًّا؛ لأنني أُومن به جدًّا، وكنتُ أظن أنه سيُعيرني الاهتمام الذي أستحق، ولكن — للأسف — عندما أحتاج إليه لا أجده.

نزلت دمعة من عينها، لم تقم بإزالتها، بل تركتها تسقط على أرضية الشاحنة مباشرةً، وتذوب في بلل بول الخنازير الذي يتساقط من الطابق العلوي للشاحنة، تبعتها دمعتان مضيتا سريعًا وانتهيتا في الموقع ذاته. أضافت: أنا أحسُّ بأن الأمر سوف لا يمضي بالسلام، سيُقْبض علينا في إيطاليا. أنا إنسانةٌ منحوسةٌ، ودائمًا ما يرافقني الحظ التعيس.

– لماذا إيطاليا بالذات؟

قالت وهي تمسح خدها من آثار الدموع: لأنها أسوأ دولة يمكن القبض عليكَ فيها. أنا دائمًا أتوقع الأسوأ.

– حسب علمي أننا سوف لا نمرُّ بإيطاليا. إيطاليا يمر بها المسافرون عبر البحر. نحن سوف نعبر ألبانيا ويوغسلافيا، وهم هنالكَ لا يهتمون كثيرًا، وإذا اهتموا ليست لديهم الإمكانيات التي يكتشفون بها موقعنا في الشاحنة، إلا إذا أفرغوا شحنتها، وهم عادةً لا يفعلون ذلك. هذا ما قاله لي المهربون.

بعيدًا عن تورُّم عينيها من البكاء، وشعرها المبعثر بفوضوية، وصوتها القلِق المبحوح، كانت جميلة، بل جميلةً جدًّا. في الحقيقة، من أجمل النساء اللائي رآهنَّ في حياته، على أقلِّ تقديرٍ هي أجمل امرأة تستقلُّ شاحنة خنازير نحو أوروبا، لها عينان دامعتان، وهي تقبع في القفص المجاور لقفصه الآن. ولم يستطع أن يصدِّق أن يصاحب هذا الجمال اللعنات الإلهية وسوء الطالع اللذان تشير إليهما. قال لها: أنتِ جميلة.

دون أن يبدو عليها أنها تأثرت بملاحظته — بل بصورةٍ أقرب لأن تكون حاسمةً بل حادةً بعض الشيء، ولكن العبارة الأقرب لتوصيف طبيعة تلكَ الجملة، هي كلمات الراوي: «غير عاطفية البتة» — قالت: لولا ذلكَ لقتلني البدو المصريون في سيناء، ولولا ذلكَ أيضًا لما استطعتُ أن أدفع تكاليف الرحلة إلى أوروبا.

– البدو؟

– نعم، لقد باعنا بدوٌ سودانيون لبدوٍ في سيناء: كنا عشرة أشخاص، معي امرأةٌ أخرى، كلهم تقريبًا بيعوا في شكل أعضاء، لولا أن أحد البدو أحبَّني، أو أنني أعجبته، لما نجوت.

صمتتْ، كان أحد الخنازير يصرخ بصورةٍ مرعبة، تبعه خنزيران آخران، ثمَّ لم يعد هنالكَ سوى صوت اصطكاك حديد الناقلة بعضه ببعض، وضجيج عجلاتها في التحامها بالأسفلت. الجوُّ باردٌ قليلًا، رائحة روث الخنازير تملأ المكان، وهو أمر متوقع، بل هو الشيء الذي جعلهما يستقلان هذه الناقلة بالذات، فرائحة الخنازير تضلل الكلاب البوليسية عن رائحتهما؛ بالتالي كان عبورهما الحدود اليونانية مع ألبانيا ويوغسلافيا سهلًا؛ فالكلاب البوليسية المُدرَّبة لم تشمَّ شيئًا سوى عفن الخنازير. مرَّت تحت الناقلة أيضًا وعلى جوانبها وغرفة القيادة، ولكنها لم تعثر إلا على

خنازير سمينة بائلة، وحتى الشرطيُّ الألبانيُّ الذي وضع عينيه ومِنخاريه في فتحات التهوية؛ أي الشبابيك المعدنية، انسحب سريعًا مبتعدًا عن الناقلة وهو يكحُّ ليُخرِج كلَّ ذرة هواء استنشقها من جوف الناقلة القذر، وكاد أن يستفرغ وجبة إفطاره الرخيصة. أظنُّه تقيَّأ فيما بعدُ.

لم تكن الخنازير جائعة؛ فالطعام الذي لديها يكفيها لأسبوعٍ كاملٍ، كما أن الماءَ متوافرٌ في أحواض مغلقة بصورةٍ طيبة، ولا يمكنها أن تنفتح إلا عندما يضع الخنزير فمه محاولًا التقاط خيطٍ خفيفٍ من الماء دائمًا ما يكون موجودًا على قمَّة الغطاء؛ ليُعلم الحيوان بمصدر الماء عندما يعطش، وعندما يخرج فمه منه بعد أن يرتوي ينغلق الوعاء مرةً أخرى، لكن يبدو أن شهية الخنازير للتزاوج عالية؛ فإن الذكور لا تتوقف عن محاولة أن تفعل شيئًا ما يحفظ النسل. قالت له: لدينا خنازير بريةٌ في البيت عندما كانت أسرتنا تقيم في القرية.

قال لها وهو يبتعد عن خنزيرٍ كبيرٍ يقترب منه — فالخنازير تحيط به من ثلاثة اتجاهات، وكلما أرخى ظهره في جهةٍ ما لحسه لسانٌ باردٌ يثير القشعريرة في جلده، أو شمَّه أنفٌ رطبٌ ونفَث فيه زفيرًا حزينًا، أو صرخ حلقٌ في أذنيه: أنا لا أحبها، بل أكرهها. هذه المخلوقات القذرة تثير جنوني.

قالت له: ما هي؟

– الخنازير.

قالت وهي تضع أوَّل ابتسامةٍ على فمها منذ أن رآها تنكمش هنالكَ على جسدها مثل قنفذٍ أسطوريٍّ عملاق؛ ابتسامة واسعة شملت وجهها كله، وأطلقت أسنانها البيضاء المنتظمة لتعانق بؤس المكان فتُضيئَه، أو هكذا خُيِّلَ له: مشكلتكَ نفسيةٌ لا أكثر! كلُّ المسلمين يكرهون الخنزير، وهو حيوانٌ عاديٌّ بريءٌ، بل جميلٌ أيضًا وطيب. كُرهُكَ له لا علاقة له بالخنزير.

بالطبع يستطيع أن يردَّ عليها، وبإمكانه أن يفنِّد لها ما تدَّعيه علميًّا؛ لأنه يعرف بل يحفظ عن ظهر قلبٍ التحليلَ المَعمليَّ المشهور عن لحم الخنزير الذي يتحدث عن الديدان التي تعيش في ألياف عضلاته،

وهي مضرَّةٌ جدًّا لصحة الإنسان؛ لأن الخنزير يأكل القاذورات وفضلات الحيوانات الأخرى. ولا نظن أنه سوف يقول لها إن سبب الضعف الجنسي وقلة الإنجاب لدى كثير من «الخواجات» هو أكلُ لحم الخنزير، وهو ما قاله له والده ذات مرة، كما أنه سيشعر فعلًا بالخجل خشية أن تتهمه بالجهل المُفرط إذا قال لها ما سمعه من رجل دين معروف: «إن لحم الخنزير يقتل الغيرة في قلب الإنسان، وهو السبب المباشر في أن آكليه يتهاونون في مسائل الجنس، ولا يشعرون بالخجل في تناولها، بل بإمكانهم أن يمشوا عُراةً في الطرقات.» ألمْ تسمعي بأندية العُراة وشواطئ العُراة، وربما قُرى العُراة أيضًا؟

يهمه الآن أن يكسبها، يريد أن يتقرَّب منها بأية صورة كانت، ولو وافقها جزئيًّا أو مؤقتًا على ما ذهبت إليه من رأيٍ بشأن كُرْهِهِ للخنزير، بل على ما قد يأتي من آراءٍ غريبةٍ من جانبها لاحقًا. لأجل جمالها يستطيع أن يغفر لها كلَّ شيء؛ فالجمال سلطانٌ يُطاع، بل ما فائدة أن يكسب حوارًا ويخسر امرأة؟ قالت له: دعني أحكي لكَ شيئًا أريد أن أحكيه لك. هل تسمح لي بذلك؟ من المفترض أن أكون الآن ميتة، وعظامي ترقد في صحراء سيناء مع مئات الجثث التي تحنطها الشمس والرمال الحارقة. لم تكن لديَّ نقود لأفديَ نفسي، ولا لأسرتي مالٌ يرسلونه للمختطفين، ولا أحبُّ أن أتعذَّب، ومثلي مثل كلِّ إنسانٍ لا أرغب في الموت، فقلتُ ذلكَ بوضوحٍ لشيخٍ من البدو، وهو الحاكم الفعليُّ للخاطفين، والرأس المدبر لكلِّ شيء، واقترحتُ عليه أنني أستطيع أن أجلب له مالًا كثيرًا جدًّا إذا تركني في حُجرةٍ وأدخل عليَّ من رجال عصابته من يريدني، فهُم بلا نساءٍ يقيمون في معسكراتٍ صحراويةٍ لشهورٍ كثيرة. أعجبته الفكرة، وبدأ هو بنفسه. في الحقيقة، لم يكن الأمر سيِّئًا تمامًا، أو أنني فكرتُ في أن أستمتع به، تعاملتُ معه بصدقٍ وموضوعية كما لو أنني أقوم بعملٍ مكتبيٍّ وآخذ عليه نقودًا، وأستمتع بالخدمة في الوقت ذاته. كانت رائحة إبطيه مثل صُنان النَّسْر، ولكنه كان رقيقًا معي جدًّا، كأنه لم يكن ذلكَ الرجل الذي ذبح الشابَّ الإريتريَّ «حقوس» قبل ساعتين، وعلَّق جثته على عمودٍ أكبرَ بقليلٍ من العمود الذي عُلِّقَ عليه «السيد المسيح» قبل عشرين

قرنًا من الزمان في مكانٍ ليس ببعيد عن هذه الصحراء القاحلة. الشابُّ الذي هرب ليلًا وقبضوا عليه عند الحدود الإسرائيلية، وكاد أن ينجو؛ حيث إنه عبَر الحاجز الأول من السلك الشائك وتبقَّى له حاجزان آخران ثمَّ يعبُر إلى إسرائيل. ذبحه لكي يخيف البقية حتى لا يحاول أحدهم الهرب. ربما هو أيضًا كان يؤدي عمله؛ العمل الذي يرتزق منه، كان يؤدِّيه بحرفيةٍ، بدون ضمير، بدون أية مشاعر إنسانية. كان رجلًا ضخم الجثة مثل ثور جاموس، ولكنه ليس متوحِّشًا تمامًا. كما فعل كل البقية، لم يخلع أيًّا من ملابسه، سوى سروالٍ من الكتان كبير الحجم، بينما كنتُ أيضًا أرتدي فستاني الوحيد، ولا أظن أن رائحتي كانت أطيب من شميم إبطيه، فلم أنَلْ حمَّامًا منذ شهورٍ كثيرة؛ أي منذ أن باعنا البدو السودانيون للبدو المصريين في صحراء سيناء البغيضة، فالماء في هذه الصحراء أندر من الذهب. عندما وصل ذروته، كان قد أفرغ كميةً هائلةً من السائل المنوي، كأنما دُفق قارورةً كبيرةً من الماء في أحشائي، بل ظننتُ أنه تبوَّل علي، ولكن لم يكن الأمر يخلو من متعة. كنتُ أتخيَّل نفسي أمارس الجنس مع الرجل الذي أحببته كثيرًا، وكنتُ أصرخ وأنادي باسمه، وأرى عينيه الطيبتين تحملقان في وجهي وهو ينتشي، وهو يضمُّني إليه في رفق وهو يرِقُّ. لم أحقد على البدوي، بل إنني ما زلتُ ممتنةً له؛ لقد أنقذ حياتي، فالحياة أغلى من كلِّ شيء. ثمَّ بعد دقائقٍ دخل إليَّ بدويٌّ آخر، ثمَّ آخر لا أدري كم عددهم في اليوم الواحد، وربما زارني بعضهم مرتين أو ثلاث مرات، حتى ما عُدتُ أميِّز أحدهم من الآخر؛ فلقد تطابقت ملامحهم عندي. كانوا مثل عملةٍ من فئةٍ واحدة؛ الرائحة نفسها، السحنات نفسها، اللغة نفسها، الطريقة نفسها في ممارسة الجنس، النظرة البائسة نفسها التي ترتسم في عينَيْ أحدهم وهو يرتدي سروال الكتان الكبير ويهمُّ بالخروج.

في اليوم الرابع، أتاني الشيخُ البدويُّ وقال لي إن ما قمتُ به كثيرٌ، ولكنه لا يكفي لثمن إطلاق سراحي، وعليَّ أن أبيع إحدى كُليتيَّ لتغطية الفرق الذي قدَّره بألف دولار. ستأتي العيادة المتحركة وبها جراحون أكْفَاء مَهَرة، وقال إن العملية بسيطة جدًّا، وإنها لا تؤثر على حياتي

المستقبلية، وكثير من الناس — حسب علمه — يعيشون بكُلية واحدة، وعليَّ ألا أخاف، وبعد العملية سيقوم بنقلي إلى المدينة، وهنالكَ ستعتني بي الحكومة المصرية، إنهم لن يتركونني أموت. وهذا وعدٌ منه، وهو لم يفعل ذلكَ إلا لأنه أحبَّني، وأنه لا يريد أن يقتل امرأة جميلة وذكية قد يكون لها مستقبلٌ باهرٌ في أوروبا. لولا أنهم دفعوا الثمن مقدمًا للبدو السودانيين الذين وصفهم بالجشعين لأطلق سراحي بدون مقابل. «إنهم عادةً يأخذون الكُليتين والقلب والعينين وبعض الدم أو جُلَّه، وكلَّ ما هو مفيدٌ في جسم الإنسان ويمكن نقله لإنسانٍ مريضٍ آخر ينتظر في مكانٍ ما ولديه مالٌ يشتري به البضاعة، ولكن معكِ سيكون الأمر مختلفًا، مجرَّد كُليةٍ واحدةٍ لا أكثر.»

بكيتُ كثيرًا جدًّا، ولكن عندما أتت غرفة العمليات المتحركة — وهي عربة صغيرة — كنتُ قد أغْمِيَ عليَّ وأنا أرى أصدقائي يَخرُجون منها جثثًا هامدةً تسيل دماؤهم من على نقَّالاتٍ صدئةٍ؛ حيث تُرمى جثثهم في حفرة كبيرة في جوف الرمال الحارقة. كلُّهم عندما دخلوا عربة الجراحة كانوا يصدِّقون قول البدويِّ بأنهم فقط سيأخذون الكُلية اليُسرى أو اليُمنى لا أكثر، وأنهم سوف يرسلونهم بعد ذلكَ إلى المدينة، يلقون بهم في أطرافها، سيُبْلِغ عنهم المارةُ، تأتي الشرطة وتأخذهم إلى مستشفى شرم الشيخ؛ حيث سيتم إسعافهم.

صمتا عندما توقفت العربة فجأة. كانا يسمعان بعض الحوارات بلغةٍ لا يدريانها، ثمَّ «هوهوة» كلابٍ خشنة، يحسَّان بحركة أفرادٍ حول الناقلة وتحتها. كانت تضعُ كلتا كفَّيْها على فمها كأنما تُريد أن تحبس صرخةً داوِيَةً من الانفجار وهي تغمض عينيها بشدَّة. ثمَّ ساد صمتٌ لفترةٍ طويلة، ثمَّ تحركت العربة مرةً أخرى.

قالت له: تعالَ قريبًا مني. أنا خائفة؛ تعالَ هنا.

كانت ترتجف وهي تلتصق بسيخ الحاجز. جاء قُربها إلى أن التصق هو أيضًا بسيخ الحاجز، أدخلت كفَّها عبر فتحات السيخ، أمسكتْ بكفِّه. كانت عيناها قد أخذتا تحمرَّان مرةً أخرى، سقطت بعض الدموع على فخذها.

قالت: أنا خائفة، لا أستطيع تحمل أية مآسٍ أخرى. لولا أنهم سيقتلونني في بلدي لعدتُ.

كانت ترتجف كأنما أصابتها حمَّى فجائية، يدها باردة ومعروقة. مرَّر كفَّه الطليقة على وجهها، كان ساخنًا، مسح أدمُعَها. لا يدري ماذا يقول لها، لا يعرف كيف يواسيها؛ فهو لم يُوضَع في هذا الموقف من قبل. كانت الخنازير كعادتها تصرخ في كلِّ الجهات، رائحة روثها تحتلُّ الأمكنة. الجو بارد، وجهها ساخن، ويستطيع أيضًا أن يُحِسَّ بسخونة جسدها.

يبدو أنها أخذت تطمئن قليلًا قليلًا، أدخلت كلتا يديها عبر سيخ الحاجز وهي باركةٌ على ركبتيها، فاستدار هو وبقي على ذات الوضعية، فتواجها. طوَّقت خصره بساعديها وجذبته إليها، طوَّقها أيضًا بساعديه، فأصبح نصفهما الأعلى في حالة مواجهة كاملة للحاجز. قالت له وهي تحملق في عينيه بمُقلتين مُحمرَّتين وعلى فمها ابتسامة قلقة: «قبِّلني.»

كان وجهاهما ملتصقين على السيخ، وعبر الفتحات مرَّر شفتيه ليلتقيا بشفتيها. كان طعمهما مالحًا وهما دافئتان.

الفضيحة

في هذا الفصل سنعود للجملة التي بدأنا بها الفصل الثاني:

> فقد تخلَّص من الكلبين اللذين ورثهما من المرحومة أم زوجته نورا؛ السيدة لُوديا شُولز، عندما كان يعمل معها مُخَرِّيًا للكلاب، أودعهما بعد وفاتها مباشرة ملجأ الحيوانات الأليفة التي لا كفيل لها.

في هذا الفصل سيكمل لنا الراوي رحلةَ درويش إلى النمسا، ولكنه سيهتم لاحقًا بعلاقته بزوجته «نورا شُولز»، ابنة «لُوديا شُولز» العجوز التي عمل عندها، كما هو مذكور في المقطع أعلاه، وهي الآن تجلس قربه وقد احتسيا بعض العرق ينتظران حضور صديق بنتهما «توني».

درويش يسرح بخياله بعيدًا في قريته، مطارَدًا بفضيحة ابنته، بالحسم وبما يجب عليه فعله؛ أي إنه يدير معركته هنالكَ في ميدان القتال الذي يعرف شِعابه وطرائق كرِّه وفرِّه، ويمكنه أن ينتصر فيه بصورةٍ نهائيةٍ وقاسية. لم يُحِس درويش أنه كان متناقضًا في يومٍ ما؛ لأنه لم يختبر أفعاله في مقابل ما يؤمن به بدقة. هكذا وجد المجتمع أمامه بمعاييره المتناقضة، التي من قوة تناقضاتها أصبحت في غاية التوازن؛ فهو يُقبِّل الفتاة، بل يرسل أصابعه إلى ما تحت تنورتها، ويعبث بعُشبِ حديقتها السرية، وتتسلل أنامله الداعرة إلى ما دون ذلكَ حيث بحيرتها الصغيرةُ الدافئة، ولا يشعر بأيِّ عيبٍ غير جنون اللذة الذي يسيطر على وعيه وما بعد وعيه. لم يُحِس بأية فجيعةٍ أخلاقيةٍ وهو يطلب منها أن تتعرَّى وتديرَ ظهرها إليه،

وتسجدَ حانيةً رأسها تجاه أرضية الشاحنة المسرعة التي تنهب الأرض وتلتهم المسافات الطويلة نحو ما لا يدريان. عَبْرَ فتحةٍ في الحاجز المعدنيِّ يُلقِمُها الشيءَ؛ تمامًا كما تفعل بعض الخنازير الشَّبِقَة في القفص المجاور. وعندما أدرك ذروة نشوته، أيضًا، لم يفكر كثيرًا أو قليلًا في مسألتَيْ العيب والفضيحة، أو حتى ما يُطلِق عليه الناس في بلاده «الرجولة»، صَرَخَ مِثل ضَبعٍ جريحٍ يقترب منه أسدٌ جائع. والرجلُ في أوطانه عندما يصرخ في تلكَ الفِعْلَة يُشَبَّه بالمرأةِ ولا تحترمُهُ النساء، وهو يحبُّ أن يَحترمْنَه.

عبر الباب السريِّ ذاته على أرضية الشاحنة الذي دخلا منه مِن قبلُ في زرائبِ المواشي بضاحية أثينا، أنزلهما السائق عند مزرعة على أطراف فيينا، في بيتٍ كبيرٍ قديمٍ لفلاحٍ لا وجود له، وطلب منهما أن يستحمَّا ويُغيِّرا ملابسهما، أو يغسلا تلكَ الملوَّثة ببول الخنزير، ويبقيا هنالكَ ليومين آخرين — البيت به كلُّ ما يحتاجان إليه — ثمَّ يتوجَّها في اليوم الثالث عند الثامنة إلا الربع صباحًا إلى محطة القطار، ويستقلَّا القطار الذاهب إلى فيينا عند الثامنة ودقيقتين في الرصيف رقم «ثلاثة»، والمحطة تقع على بعد أمتارٍ من موقعهما. عليهما أن يكونا في الزمان والمكان بدقة: «القطار لا ينتظر أحدًا.»

هما الآن في أمانٍ ولا خوفَ عليهما من شيء، ويستطيعان أن يُقدِّما نفسيهما للشرطة ويطلبا حقَّ اللجوء السياسي، ولكنْ كلُّ واحدٍ منهما على حدةٍ، وفي مكان مختلف من المدينة، وألَّا ينسيا ماذا يقولان لإدارة الهجرة، وأن يأخذا الأمر بجدية. إنهما يستحقان ذلكَ الحق، ولكن ليس من السهل نيله. وعليهما أيضًا أن ينسيا قصة شاحنة الخنازير، ويتحدثا عن رحلة بالبحر إلى إيطاليا، ثمَّ عَبْرَ شاحنةٍ تحمل صناديقَ فاكهةٍ أو أسلحةٍ أو أية أشياء أخرى تخطر في بالهم أثناء التحقيق. لقَّنهما السائق قصة طريق البحر تلقينًا جيِّدًا، وهُما تقريبًا حفظاها عن ظهر قلب، وضعاها جنبًا لجنبٍ على رفٍّ من رفوف دولاب الذاكرة، مع تلكَ القضية الوهمية التي سيعرضانها على إدارة الهجرة في الوقت المناسب.

قدَّم إليهما مالًا يكفي لإطعام كلِّ فردٍ منهما — كما قال — لأسبوع كاملٍ: «قد لا تحتاجان للمال. كُلَّما أسرعتما بإبلاغ الشرطة كان خيرًا

لكما. سوف تحصلان على السكن والطعام والكساء أيضًا مجانًا.» ثمَّ اتصل بالوسيط وأعطى التليفون لكلٍّ واحدٍ منهما، وتبادلا معه كلمة السر؛ وبذلك سيقوم بتحويل المبلغ المحجوز للمهرِّبين في اليونان، أي إن العملية انتهت: «حمدًا لله على السلامة، مرحبًا بكما في أوروبا.»

لم يلتزما بنصائح المهرِّبين في التعرُّف على أحدهما الآخر؛ فقد تبادلا أدقَّ المعلومات عن حياتيهما في السابق. حدَّثها عن أسرته وأخويه الاثنين غير الشقيقين العاطلين عن العمل على الرغم من تخرجهما في الجامعات، عن أبيه السودانيِّ — عليه الرحمة — وأمِّه المصرية، عن أحلامه وآماله، وبنتٍ تحبُّه تركها خلفه. وحدَّثته هي عن الحرب في بلدها، والتطهير العرقيِّ الذي يُمارَس على قبيلتها، عن البدو القَتَلة، وعن حبيبها وأشياء أخرى، ولكنَّ الشيء الوحيد الذي لم تقُله له، بل كذبت عليه فيه، عندما سألها وهما في الشاحنة: «ماذا كنتِ تعملين في مصر؟»

كانت قد حدثته عن أنها بقيت في المستشفى لخمسة أشهر بعد أن أخذ البدو كُليتها ورموا بها في شارعٍ في مدينة العريش، وأنها أصيبت بالتهابٍ بالغٍ كاد أن يودي بحياتها؛ نتيجةً للظروف غير الصحية التي أُجرِيَت لها فيها عمليةُ نزع الكُلية، بالإضافة إلى الساعتين اللتين قضتهما بدون رعايةٍ في العراء، ولكن طبيبًا مصريًّا عجوزًا اهتم بها كابنته، وساعدها في أن تتخطى محنتها؛ فقد قام بنقلها إلى مستشفى «القصر العيني» بالقاهرة حيث يعمل بصورةٍ شبه دائمة، وهنالك تلقَّت رعايةً طبيةً جيدةً بتوصيةٍ منه وتحت بصره. ولم تدخل في تفاصيل أدق، أيضًا فيما يخصُّ المستشفى، ربما أنها لا تريد استعادة ذكرى لحظات كانت فيها أقرب للموت، بل إذا كانت تؤمن بالموتى الذين يعودون للحياة لاعتبرت نفسها واحدةً منهم، فهل هنالكَ شيءٌ آخر غير فقد الأمل في الحياة، وأن تظلَّ تنتظر خروج روحكَ بين الفينة والأخرى، تراقب نبض قلبكَ وهو يتلاشى تدريجيًّا، يغوص عميقًا في بئرٍ من الصمت المريع. تُشَلُّ رئتاك، وتشعر بالعالم يضيق ثمَّ يضيق ثمَّ يضيق إلى أن يصبح في حجم إصبعك، في حجم شعرة، في حجم ذرةٍ من الليل، ثمَّ تغيب عن الوعي بالأشياء. لقد مَرَّتْ بهذا كُله، بتجربة الموت والسقوط في هُوَّة العدم. ظلت في حالة

موتٍ أو حياةٍ، لا تدري! ولكنها حالةُ عدمٍ مؤكَّد، إلى أن استيقظت ذات صباحٍ باكر، كان الضوء يغمر الغرفة كلها، يغمر روحها، أحسَّت به في أحشائها، يجري مع دمها، كان كل شيء يستيقظ من سُبات. لا تدري كم مضى من الوقت: أأشهرٌ، أم شهرٌ، أم جزءٌ ضئيلٌ من الثانية؟

وحين آن أوان مغادرة المستشفى، كانت لا تدري إلى أين تذهب، وليس لديها جُنيهٌ واحدٌ في جيبها. لقد أخذ البدو من جيبها حتى العملات المعدنية الصغيرة جدًّا، وكلَّ ما تمتلك من زينة؛ وهي حلقةٌ واحدةٌ من الفِضَّة كانت في شكل دائرةٍ صغيرةٍ تعلق بأذنها اليسرى، وزنها خمسُ جراماتٍ، وسعرها قد لا يبلغ ربع دولارٍ أمريكي. هذه الحلقة الرخيصة تعني لها الكثير، كانت لأمِّها. في الحقيقة، هي كلُّ ما تملك أمُّها من زينة، أعطتها إيَّاها من أجل أن تبقيها معها للأبد. ويعني ذلكَ «الأبد» أنها عندما تموت يجب أن تُدفن معها؛ حتى تتعرَّف عليها أمُّها في الحياة الأخرى، عندما تلتقيان في الجنة وسط زحمةٍ من الأمم.

لا تعرف شخصًا غير الطبيب الطيِّب الذي قام برعايتها، ولكنها قرَّرت أيضًا ألا تتصل به؛ يكفي ما قام به تجاهها، وأنه أنقذها من الموت، وأنها ستشقُّ طريقها وحدها. فكرتْ كثيرًا جدًّا في الخطوة اللاحقة، ثمَّ سألت ممرضة القسم أن تصف لها أقرب كنيسة من مستشفى القصر العيني، لكن الممرضة قالت لها: إن دكتور «جمال عباس» يريدها، ويطلب منها أن تنتظره، وهو الآن بالمستشفى، وسيحضر حالًا.

أمَّا كل ما قصَّته له بعد ذلك، فلم يكن سوى كذبات ألَّفتها في حينها، مثلًا: قولها إنها تزوجت الطبيب المصري العجوز، وأنها حصلت على تمويل رحلتها إلى أوروبا منه بكامل رضاه. والأكذوبة المصاحبة لهذه القصة بالطبع، التي يستطيع كلُّ قارئٍ مهما كان خياله ضعيفًا جدًّا، ومهما كان مُرهقًا من القراءة، ويعاني مزاجه من عكرةٍ سببها إشكالاتٌ أسريةٌ شائكة، أو حمَّى ليلية مع حرقانٍ في الحلق والروح والتبوُّل، أو إمساكٌ مزمن، أن يتنبأ بها، وهي: أنها سَرقت مبلغًا كبيرًا من المال من دكتور «جمال عباس» العجوز وركبت البحر بجواز سفرٍ مزوَّرٍ إلى اليونان!

كان بيت الفلاح كبيرًا جدًّا، يتكون من طابقين أو أكثر. لم يهتما كثيرًا بما فيه، ولو أنهما تجولا كثيرًا في أنحائه؛ حيث كلَّ مرةٍ يكتشفان غرفًا جديدةً لم يشاهداها من قبل. كانت السِّمة العامة لكل شيء هي الإهمال الشديد، والغبرة البيضاء المتراكمة على الأشياء بداخل الغرف، ورائحة الرطوبة وتعفن الأشياء البطيء. تخلَّصا من ملابسهما المتسخة الملوثة ببول ومخلفات الخنازير. لم يقوما بغسلها، بل ألقيا بها في سلة أوساخ كبيرةٍ مُهْملةٍ في البلكونة. أخذا حمَّامًا بماءٍ باردٍ حيث لا يُوجد ماءٌ ساخنٌ. قاما بإعداد غرفةٍ واحدةٍ للنوم؛ حيث يستحيل إعداد غرفتين أو مفرشين، فالأمر يحتاج ربما ليومٍ كاملٍ، وهُما مرهقان، وجائعان، وقلقان. قد يفعلان ذلكَ في الغد.

كان اسمها «ناديا صاوميل» من رواندا، وهي من أقلية «التوتسي» التي ترزح تحت سيطرة أغلبية شريرة (ذلك حسب تعبيرها باللغة وتفاصيل وجهها) تُسمي «الهوتو». أسرتها الآن تقيم في «كيجالي» العاصمة القومية. غادروا قريتهم إلى المدينة تجنبًا للعداء المتواصل من جيرانهم الهوتو الذين يطمعون في أرضهم وحيواناتهم، الذينَ لا يتردَّدون في قتلهم إذا لم يتركوا لهم كلَّ شيء بسلام؛ فأخذوا ما يسهل حمله، وغادروا إلى حيٍّ فقيرٍ في أطراف العاصمة، تاركين أرضهم وبيوتهم للهوتو. كذلك فعلت أغلبية التوتسي. كانوا يحسُّون أن شيئًا مؤلمًا ما سيحدث لهم في هذه القُرى البعيدة عن نظر السُّلطة المركزية؛ حيث سيطرة العشائر والمجموعات القبلية. المركز أيضًا يسيطر عليه الهوتو ذاتهم، ولكنه أهون؛ حيث تُوجد بعض الرقابة الدولية. لقد حدثت عدة عدائيات في أزمنة مختلفة، راح ضحيتها الكثيرون من بني جلدتها في القُرى والتجمعات السكنية النائية.

كان سرير الفلاح كبيرًا ومتسعًا، ولو أنه كان باردًا جدًّا، وتفوح منه رائحة الرطوبة والقِدَم والإهمال. لم يتحدثا كثيرًا، دخلا تحت الغطاء الثقيل، حضنا بعضهما البعض وناما. لا يدري كم كانت الساعة، ولكن يبدو أن الصباح لم يَحِن بعد؛ حيث كانت الإضاءة التي تدخل من الخارج للغرفة هي ذاتها التي كانت عندما خلدا إلى النوم. بعض الفوانيس الكهربائية الشاحبة متناثرة حول المكان، أو عند بوابات بعض البيوت.

كان اللحاف قربه دافئًا عندما زحفت أنامله تتلمَّس ما حوله. وفجأةً، انتبه إلى أن أنامله لم تحصل على شيء، فنهض من السرير، ودار بنظره في الغرفة. لم يجدها، كانت أشياؤها ما زالت متناثرةً في الغرفة، ولاحظ أيضًا أن شعاعًا من الضوء يأتي من ناحيةٍ ما من المنزل الكبير؛ من الجزء الأسفل بالذات. حسنًا، تكون قد ذهبت لقضاء الحاجة في المرحاض الذي يوجد في الأسفل — قاما بتنظيفه بالأمس — ولكنه فضَّل أن يتبع الضوء نحوها.

أخذ خطاه للأسفل، واستطاع أن يشاهدها بعد خطواتٍ قليلةٍ من خلال حَنية الدَّرَج، تجلس في القاعة الواسعة على الكنبة. كانت ترتدي ملابس نومها — وهي عبارةٌ عن جلبابٍ من السلك قصيرٍ أبيض — تشعُّ من البعد لانعكاس الضوء عنها. أمامها «تربيزة» صغيرة من الخشب البُني مرَّا عليها بالأمس. تدخِّن سيجارة. صاح بتحيَّة. ردَّت عليه، وأشارت بأن يأتي. عندما اقترب منها شمَّ الرائحة ذاتها التي شمَّها من قبل في بيت المهرِّبين في أثينا. إنه البنقو. سألها مستغربًا: بنقو؟

قالت وفي فمها ابتسامةٌ هادئة: نعم، يمكنكَ أن تقول ذلك، ولكنه خليطٌ من أعشابٍ نادرة، «القُنَّب الهندي» هو الأساس. أحضرته معي من أثينا، يبيعه صلاح سعد الإريتري. إنه يبيع كلَّ شيء؛ من مخدراتٍ لنساءٍ ومثليين ومثليات لديه شبكة لا بأس بها. هل تدخن؟

قال لها دون تردد: لم أدخن البنقو من قبل، ولكنني كنتُ أدخِّن السجائر سنواتٍ طويلةً، ولكنني تخليتُ عنها منذ سنة تقريبًا.

جلس قربها على الكنبة، كأنها قالت كلَّ ما عندها، وقال هو كل ما عنده. كان يتجوَّل بنظره حول المكان. فجأةً سألها: إذن أنتِ كنتِ معنا في بيت المهرِّبين؟

قالت وهي تسحب نفسًا طويلًا: يمكنكَ أن تقول ذلك.

– إذن أنتِ التي حدثني عنها صلاح سعد؟

– ماذا قال؟

توقفتْ عن التدخين تاركةً السيجارة بين إصبعيها وهي تحملق فيه منتظرةً إجابةً منه، ولكنه تردد بعض الشيء. ربما خاف من عواقب

إجابته إذا أخبرها بالحقيقة، وأيضًا ما كان يرغب في أن يكذب عليها. قال لها أخيرًا: سأحدثكِ في وقت لاحق.

ضحكتْ بصوتٍ عالٍ وهي تقول له: لا بأس، أنا أعرف أنه اتفق معكَ على عشرة دولارات على أساس أن ينالني هو وأنت، أليس كذلك؟

ضحكتْ مرةً أخرى، وأضافت وهي تجرُّ نفَسًا طويلًا من السيجارة بينما يخرج الدخان من فمها مصحوبًا بالكلمات: إنه رجلُ أعمالٍ صغيرٌ ناجحٌ جدًّا؛ دائمًا ما يأخذ ٣٠٪ عمولة، يعني أن نصيبي سبعة دولارات، بمعنًى آخر: إنه يأخذ عمولة حتى من الخمسة دولارات التي تدفعها أنتَ لأجله.

ثمَّ ضحكت مرةً أخرى وهي تمد إليه سيجارة البنقو. أضافت: إنه شخص ثري، ولكنه كذاب ومخادع، ودائمًا ما يدَّعي الفقر المدقع.

أخذها منها وتركها في يده، وطفِق يفكر في أشياء كثيرة مختلفة. قالت له: اجذب نفَسًا قصيرًا جدًّا، ثمَّ نفَسًا آخر قصيرًا جدًّا، ثمَّ نفَسًا طويلًا، وسترى العالم كما أراه الآن: مثل لُعْبَةٍ صغيرةٍ طيِّعةٍ في كفِّك تفعل بها ما تشاء. أنا الآن أفعلُ بالعالم كلِّه ما أشاء.

قال لها متشكِّكًا وهو ينظر للسيجارة تارةً، وتارةً إليها، ينقل نظره بين الاثنتين في سرعة بالغة: لا أستطيع.

قالتْ في تحدٍّ: بل تستطيع.

قال وهو يمدُّ إليها السيجارة: لا أستطيع صدِّقيني!

تجنَّبت يده الممدودة إليها بالسيجارة: أنا قلتُ إنك تستطيع؛ فأنت كنتَ تدخن مِن قبلُ السجائر، فلا فرق إلا في المحتوى؛ العملية واحدة. اسحب نفَسًا الآن!

قالت الجملة الأخيرة بأسلوبِ آمِرٍ كما لو أنها قائدٌ عسكريٌّ يصدر أوامرَ حاسمةً ببدء المعركة والتقدم للأمام، وقتل كل جنود العدو والتمثيل بجثثهم بكل قسوة، وإحضار رءوسهم إليه في غرفة القيادة بعد حلق شعرها: الآن!

جذب نفَسًا قصيرًا جدًّا، ترك الدخان في فمه. قالت له وهي تقرِّب وجهها من وجهه: ابتلعه. ابتلعه الآن!

بينما كان يخرج الدخان من فمه وأنفه ألصقتْ فمها في فمه مستنشقة بقايا الدخان، ثمَّ عضته بمقدمة أسنانها في شفته العليا وهي تنفخ زفيرها عند وجهه. أخذت السيجارة من بين أصابعه في حركة رشيقة، جذبت نفَسًا طويلًا، قرُبت من وجه درويش، أشارت إليه أن يفتح فمه، ألصقت شفتيها بشفتيه، كانتا — كما هما دائمًا — دافئتين. دفعت بحزمة كبيرة من الدخان في عمق حلقومه، وظلت ضاغطة على شفتيه، وبكلتا يديها، مُبقيةً رأسه ثابتًا دون حراك، إلى أن أحسَّ بالاختناق واحمرَّت عيناه، وناضل بشدة. أخيرًا استطاع بعد مقاومة عنيفة سحب رأسه من قبضة كفيها، وأخذ يكحُّ مبتعدًا عنها بقدر الإمكان، ثمَّ توقف عند المصعد، وأخذ يحملق فيها بصورةٍ مرعبة كما لو كان ينظر إلى شيطانٍ أو مخلوقٍ من عالمٍ خُلِقَ حديثًا. أشارت إليه أن يأتيَ راجعًا، ولكنه مضى نحو الحمام، غسل وجهه بماءٍ بارد، ثمَّ خطا نحو أعلى الدَّرَجِ حيث غرفة النوم. قالت له بصوت أجش: هذه كانت وظيفتي في مصر.

توقَّف قليلًا وكأنه يريد أن يصطاد الكلمات من الهواء مرةً أخرى. أضافت وهي تبتسم وتنظر إليه بغَنجٍ خبيث: ما رأيك؟

ضحكت وهي ما زالت تحملق فيه كأنها تريد أن تقرأ الإجابة من وجهه مباشرة: لولا أنني أريد أن أتزوج رجلًا أوروبيًّا لما ترددتُ في الزواج منك. لقد اكتفيتُ من رجال العالم الثالث.

لم يتفوَّه بكلمةٍ واحدة. مَرَّ كلُّ شيءٍ كما لو كان في الحلم.

أعتقد أننا ذكرنا في مكانٍ ما من الرواية أنها أجمل امرأة رآها في حياته، أو هكذا ظَنَّ. إذا لم نذكر ذلكَ فقد ذكرناه هنا للتوِّ، وربما ذكرنا أيضًا أنها قالت له إن جمالها هو رأسمالها، وهو ثروتها ومشروعها في أوروبا. وهل قالت له إنها واقعةٌ في غرام الرجل المناسب؟

ها هي ناديا تبدو الآن مثل ربةٍ صغيرةٍ خَلَقَتْ نفسها كما تُريد، وها هي بكلِّ وضوحٍ وبجاحةٍ تتصرف كما لو أن العالم لُعبةٌ صغيرةٌ طيعةٌ تلعب بها ما شاءت. قد يكون ذلكَ بفعل البنقو أو حقيقةً، لا أحد يدري؛ بالأحرى هو لا يدري!

قالت بصوتٍ عالٍ: قلتُ لكَ تعالَ للحظة.

لم يتحرك من مكانه. كان ينظر إليها بتبلُّدٍ، بدون أي معنى. نهضَتْ، وضعَت السيجارة على المِطفأة، مشت نحوه. كان يقف مثل الصنم في البقعة ذاتها. طوَّقته بذراعيها، قالت له في أذنه: لا أريد أن أقتُلك. فقط كنتُ أريدكَ أن تُقبِّلني لا أكثر قبل أن تنام، ولكن لا بأس. تُصبِح على خير.

ثم أطلقته. مضى وراءها نحو غرفة النوم. عندما استيقظ في الصباح الباكر كعادته في الاستيقاظ، كان يُحِسُّ بصداعٍ في الجهة اليُمنى من رأسه، وعزا ذلكَ إلى البنقو الذي ألقمته إياه ناديا غَصْبًا. أما هي فكانت تقبع في نومٍ عميقٍ قُربه، معطيةً إياه ظهرها، شبه عاريةٍ في قميص نومها الأبيض السلكيِّ الناعم. يبدو جسدها ناعمًا ولامعًا مع ضوء الصباح. أنفاسها تهبط وتعلو بانتظامٍ، وهي في سلامٍ تامٍّ، وبراءةٍ أشبه ببراءة الأطفال. قال لنفسه وهو ينظر إليها بغضب: «يا لها من ذئبةٍ فاجرة!»

تخلَّص من الفراش في هدوء؛ حتى لا يوقظها. بينما كان يهبط من السرير، انقلبتْ هي للاتجاه الآخر، تمتمتْ ببعض الكلمات غير المفهومة. مضى نحو الحمام وهو يضغط على موضع الألم في رأسه بسبابته بشدة. استحمَّ وهو يفكِّر في ليلة الأمس المُرعبة، ويلوم نفسه لأنه استسلم لها ببساطة، ولكنه أيضًا طرد صوتًا في نفسه يقول له إنه كان خائفًا منها؛ كان خائفًا من شيءٍ ما. مضى نحو القاعة حيث مسرح أحداث الليلة الماضية. كان المكان مُغبَرًّا جدًّا، ولا أثر لشيءٍ، بل ولا حتى بقايا رائحة عالقة في الهواء، بل ليست هنالكَ آثارٌ تدلُّ على أن إنسانًا قد جلس في المكان. كانت التربيزة والكنبة مُغبَرَّتين، كما تركاهما بالأمس على أمل أن ينظفاهما اليوم. ليست هنالكَ سوى آثار الأمس. «هل كانت تجلس في قاعة أخرى؟ هذا البيت مليءٌ بالأسرار؟ ربما.» وطفِقَ يبحث في أرجاء المكان عن تلكَ القاعة. نزل بالدَّرَج إلى الأسفل: ليس سوى الصمت والظلام.

عندما عبَرَت القاعة الكبيرة نحو الحمام، أشارت إليه بتحية تتبعها ابتسامةٌ كبيرةٌ ساحرة، ثمَّ دارَتْ قليلًا ليسمع صرير فتح وإغلاق باب الحمام. كان قد قام بمسح الأثاث وأرضية القاعة جيِّدًا من الغبرة. بدا المكان نظيفًا. أعدَّ بعض الإفطار السريع مما تركه لهم سائق العربة من

أطعمة. أخذ يقرأ في مرجع الصيدلة؛ حتى يعيدَ الهدوء لنفسه ويطردَ عنه التفكير في أمور أخرى غير مفيدة، ويضيِّعَ الزمن إلى أن تستيقظ ناديا المريبة من نومها، ويتحقق معها ممَّا جرى له ليلةَ الأمس. كان في الحقيقة عنده كتابان: هذا المرجع الكبير، ومصحفُ قرآنٍ صغيرُ الحجم. هو لا يحبِّذ قراءة القرآن وهو في هذا الوضع المشبوه: نجسٌ وغير متوضِّئ، ولم يقرب الصلاة منذ أن بدأ رحلته هذه، في صحبته الآن امرأةٌ، وكان مشحونًا مع الخنازير، وما زال مسطولًا من حشيشٍ تعاطاه بالأمس من شفتَيْ سيدةٍ لعوبٍ ومستهترَة!

أحضرتْ كُوبًا كبيرًا مملوءًا بالماء، وضعته أمامها، أخرجتْ من حقيبةٍ صغيرةٍ سوداءَ عُلبة سجائر، أخذتْ منها واحدةً ووضعت العُلبة على المنضدة البُنية الصغيرة، مشيرةً إليه بما يعني أن بإمكانه أن يدخن إذا شاء. هزَّ رأسَهُ علامةً أنه لا يرغب. سألها وهو يضع الكتاب قربه على الكنبة في المساحة التي تفصل بينهما، وهي بمثابة مقعدٍ كامل: قلتِ لي ماذا كنتِ تعملين في مصر؟

قالتْ له بهدوء: لماذا أنتَ مهتمٌّ بهذا الموضوع؟

صمت قليلًا. أمسك الكتاب بكلتا كفَّيه، نظر فيه كمن يريد أن يقرأ شيئًا ما أو يبحث عن الإجابة بين سطوره، ولكن دون تركيزٍ قال لها: مجرد سؤال.

قالت وهي تقترب منه بابتسامةٍ كبيرةٍ تبدو سعها أسنانها البيضاء من بين دخان السجائر مثل سحابةٍ محمولةٍ في عاصفة ترابية، تغمره رائحة دخانها النفاذة؛ تلكَ الرائحة التي تميز السجائر رخيصة السعر: لقد قلتُ لكَ ذلكَ من قبل، هل نسيت بهذه السرعة؟

فَضَّل ألا يخوض في هذا الموضوع مرة أخرى. اكتفى بأن أقنع نفسه بأنه كان يحلم بالأمس لا أكثر، مجرَّد حلم ثقيل، أو ربما هو يحلم الآن، والأمس كان الحقيقة والواقع. لقد اختلط عليه الأمر تمامًا، وأحسَّ أنه مرتبك، بل كان مرتبكًا بالفعل، أو أنه يشعر بأن ناديا تنظر إليه كما لو أنه مرتبكٌ، وإلا ماذا تعني هذه الابتسامة الساخرة التي في فمها بدون أية أسباب وجيهة؟ لا شيء يدعو للابتسام. حسنًا، لا بأس، سيترك الأمر كما هو، قد يمنُّ الله عليه بالحقيقة في وقتٍ ما.

الأجنَبِيُّ

يبدو أننا سنعود مرةً أخرى لجملة ذكرناها في الفصول السابقة؛ وذلكَ لأهميتها، وأنها تفتح للسارد والقارئ معًا مقاليد الروي، وهي:

> فقد تخلَّص من الكلبين اللذين ورثهما من المرحومة أم زوجته نورا؛ السيدة لُوديا شُولز، عندمًا كان يعمل معها مُخَرِّيًا للكلاب، أودعهما بعد وفاتها مباشرة ملجأ الحيوانات الأليفة التي لا كفيل لها.

وسوف نتطرَّق هنا بصورةٍ عابرةٍ إلى بعض ملامح حياة السيدة لُوديا شُولز، التي عمل عندها هاينرش أو الدكتور درويش مُخرِّيًا للكلاب. وقد لا يغيب عن فطنة القارئ أن عنوان هذه الرواية هو «مُخَرِّي الكلاب»، باعتبار أنها ما يشبه السيرة الذاتية لدكتور درويش، ولكن أصرَّ الراوي على عنوانٍ مُربكٍ وهو: «فاكهة الليل».

عندما التقى درويش بالسيدة شُولز، كانت في ذلكَ الوقت قد بدأت تستعدُّ لموتها، لم تكن طاعنةً في السنِّ بالمعنى الموضوعيِّ للزمن، فعادةً الناسُ هنا لا يموتون مبكرًا؛ حيث متوسط العمر ٩٠ عامًا للنساء، و٨٥ عامًا للرجال. تلكَ ثمرة العناية الصحية المتقدمة في أوروبا، وليس استثناءً إلهيًّا قد يثير غيرة وغضب شعوب آسيا وأفريقيا الذين يموتون في ريعان شبابهم، كما فهم الراوي في بادئ الأمر؛ حيث ظَنَّ أن الربَّ لم يَعُدْ يهتمُّ كثيرًا بمصائر بعض الشعوب، بينما أظلَّ شعوبًا أخرى بكامل رعايته،

ومَدَّ في أعمارهم مَدًّا؛ فالراوي العليم لا تخفى عليه خافية — أو كما يَدَّعِي — وما خَفِيَ عنه استدركه بسوء أو حسن طويته.

السيدة لُوديا كانت حالةً شاذةً؛ حيث إن جَوقة جنازتها أخذت تعزف مارشاتها الأولى وهي في الخمسين من عمرها، عندما سقطتْ من صخرة قاسية كانت تقوم بتسلُّقها، وأُصيبتْ بكسرٍ مُركَّبٍ في الحوض، بينما كانت تقدِّم لنفسها هديةً خاصَّة في عيد ميلادها الخمسين بتسلُّق «أيتنشتاين» Einstein — وهي صخرة قاسية تقع قريبًا من بحر الحجارة غرب مدينة «سالفلدن» بمقاطعة «سالزبورج». على الرغم من أنها كانت في كمال عُدَّتها للتسلُّق، وتلقَّت التدريب التامَّ في بيت خبرةٍ مُعترَفٍ به، وأنها في المكان الصحيح المخصَّص لأجل تسلُّق الهُواة، وفي الفصل الصحيح، وبعدما سقطت تلقَّت الرعاية الممتازة في الوقت المناسب؛ حيث كانت فرقة الطوارئ على أُهبةٍ. لم يكن أحد ليتنبَّأ بأن السيدة شُولز ستصاب بإعاقةٍ دائمةٍ بعد عشرين عامًا من الحادثة، وتلزم الفراش وهي في السبعين من العمر، ويُسجلُ اسمها في دفتر المَوتى قبل أسبوعٍ واحدٍ فقط من عيد ميلادها الحادي والسبعين، عندما قفز عمرها بصورةٍ ميتافيزيقيةٍ بحتةٍ إلى ١٠٣ أعوام؛ حيث تعدَّت عمر الموت الطبيعيِّ للمرأة الأوروبية بثمانٍ من السنوات كاملات. وهذا مؤكَّد؛ حيث أحسَّ به كل مَن هُم حولها، وهُم قلة من البشر، بالإضافة إلى كلبيها النبيهين، بالطبع إذا استثنينا ابنتها التي قطعتْ علاقتها بأمِّها نهائيًّا لأسباب تخصهم الثلاثة. والثالث المعنيُّ هنا هو الأب المختفي في أدغال أفريقيا أو أمريكا الجنوبية. في الحقيقة، ليس بإمكان أيٍّ من المرأتين تحديد موقعه على الكرة الأرضية. دعونا نتعامل معه هنا كشخصٍ قضى نحبه في زمانٍ ما.

الأبشع أنها أيضًا كانت تُحِسُّ بذلك، بل أول مَن أحسَّ به، بافتراض أننا لا نستطيع أن نحدِّد ما إذا كان كلباها أحسَّا به قبلها أم لا. ما للكلاب من حواسَّ تُمكِّنها من إدراك التغيير، واسْتِكْنَاهِ الكوارث القادمة. إنها تجهل اليوم الذي قفز فيه عمرها تلكَ القفزة المهولة؛ وهي ٣٣ عامًا بالضبط، إلا أنها تستطيع أن تحدِّد الشهر والعام، وربما الأسبوع، والساعة أيضًا، ونستطيع أن نقول إنها عندما استيقظتْ ذات يوم عند

الثامنة صباحًا — وهذا حسب روايتها تقريبًا أو الرواية الأقرب إلى روايتها — كانت طبيعية، ولكن في التاسعة والنصف، بعد أن تناولتْ وجبة الإفطار، أحسَّتْ بأن شيئًا ما قد تغيَّر فيها؛ شيءٌ فسيولوجيٌّ، وأيقنت أنها تكبر في تلكَ اللحظة، تكبر بسرعة جنونية. والإحساس بالكبر هو فعلٌ هدميٌّ جبار يعمل عكس معنى الكلمة القاموسيِّ، وينطلق من الذهن وفقًا للفلاسفة، ومن القلب وفقًا للشعراء وغيرهم من العشاق والكذَبة، ولكن الثابت في ذلكَ أن له معنًى زمانيًّا يمضي بصورةٍ مناقضةٍ لحركة عقارب الساعة ودوران الحياة؛ حيث إن العلاقة بين العمر والموت علاقة عكسية: كلما طال العمر قَرُبَ الموت، والعكسُ ليس صحيحًا، فعندما يقصرُ العمر تقصرُ الحياة. وهذا بديهيٌّ مثل السقوط في دوامةٍ عنيفةٍ لبحرٍ مجنون. تتذكر كلَّ ذلكَ بدقَّةٍ تُحسَد عليها، باعتبارها عجوزًا في المائة وثلاثة أعوام، إلا أنها كانت فعليًّا في بواكير سبعينياتها المنتهكة بفعل الزمن وألاعيبه.

كرجلٍ تعوَّد العمل منذ أن كان طفلًا، لم يستطع أن يقضي جُلَّ وقته في النادي السوداني بفيينا يلعب الورق، يدخِّن الشيشة، يشكو ظلم الحكومات المتعاقبة على وطنيه مصر والسودان، وغربته فيهما، وبفمه سَفَّةٌ من السَّعُوط بالغة الكِبَر، كما لو أنه في «سُوقِ الناقةِ» بأم درمان. فمنذ أن خرج من معسكر اللجوء الابتدائي في «تلهام» Talham بنواحي «سالزبورج»، كان يفكر في العمل، ولو أنه ممنوع عنه بواسطة قانون اللجوء، إلا أن اللغة كانت العائق الأعظم، لأن الكثيرين كانوا يعملون فيما يُتعارف عليه بـ «العمالة السوداء»؛ حيث يفضِّلها أرباب العمل أيضًا نسبةً لقلة ما يدفعونه للعامل، وخُلُوِّها من مسئولية ما بعد الخدمة، وهي في الغالب عمالة غير ماهرة، يدوية، تعتمد على الجهد العضلي. كان مجتهدًا في مسألة تعلُّم اللغة كخطوةٍ أولى في الاندماج المجتمعي وإيجاد فرصة عمل، إلا أنه كان بطيئًا جدًّا في ذلك، وكان عليه أن يتبع الأسلوب الأسهل والأسرع في تعلُّمها، وهو ما يتمثل في الجُملة التي تُردَّد كثيرًا بين الوافدين: «اللغةُ في السريرِ والكُتُبُ للحميرِ.»

تعرَّف تقريبًا على كلِّ السودانيين الموجودين بالنمسا، وكان يرى فيهم الأقرب إلى وجدانه القوميِّ من المصريين؛ فهو قد وُلد في السودان لأمٍّ

مصرية وأبٍ سوداني، في مدينة «حلفا القديمة»، وهي لا تبعد كثيرًا عن مدينة «أسوان» المصرية، ولكن الأسرة انتقلت إلى إحدى قرى أسوان وهو في المرحلة الابتدائية بعد أن توفي والده؛ حيث امتهنَتِ الزراعة في أرضٍ ورثتها أمُّه من أبيها؛ لذا كان خليطًا معقولًا من الثقافتين، ولو أنه كان هجينًا مربكًا في كثيرٍ من الأحيان، خاصَّة عندما يأتي سُؤال الهُوية، الذي أطلَّ برأسه منذ دخوله المدرسة كسوداني؛ لأن قانون الجنسية المصري لا يعترف بالأطفال الذين هم من أبٍ غير مصري، وينسبهم لجنسيات آبائهم، وليس للأمِّ الحقُّ في تجنيس طفلها بجنسيتها المصرية. وما كانت أمُّه تعي ذلك، ولم يكن هو يعي ذلك، ولم ينتبها إلى أن هنالكَ مشكلة إلا عندما قال لها مدير المدرسة: «لا يمكن قبول طالب أجنبيٍّ إلا بقرارٍ من الوافدين، وعليكِ أن تذهبي أولًا إلى مبنى التحرير بالقاهرة، وقبله للسفارة السودانية.»

وهي ليست المرة الأولى التي يُحِسُّ فيها بالاختلاف؛ لأن أخويه من أمه — حيث تزوجت ابن عمِّها المصري — كانا يختلفان عنه في لون البَشَرةِ واللكنة أيضًا، ولكن لم يكن يشعر بأن هنالكَ تمييزًا سلبيًا ضده، أو إيجابيًّا لصالحه؛ فلون بشرته كان معتادًا جدًّا في جنوب مصر ذي الجذور النوبية والفرعونية القديمة، كما أن الأب الجديد يحبه جدًّا كابنه تمامًا، ولكنه ظلَّ دائمًا وفيًّا لجذوره السودانية، ولم يغضبْ عندما قال له مدير المدرسة: «إنكَ سوداني.» ولكن الكلمة التي أغضبته وغاظته لأنه لا يعرف معناها في ذلكَ العمر بصورةٍ واضحةٍ واعتبرها شتيمة، وغاظته أيضًا بعدما عرف معناها بسنواتٍ كثيرة؛ هي كلمة: «أجنبي!» وظلَّتْ هذه الكلمة ترن في أذنه بذات نبرات نُطْقِها من فم المدير، وما زال يذكر حركة شفتيه وتعبير عينيه، وكيف أن أمَّه فزعَتْ لسماعها، وكيف أنها صرخَتْ في وجه المدير وهو يتهم ولدها بأنه أجنبي: سوداني نعم ما قلناش حاجة، ولكن أجنبي لا!

على الرغم من أنها أمِّية، إلا أنها كانت تُدرك الجانب الإقصائيَّ لكلمة «أجنبي»؛ حيث إن مصدرها الأساسي «جَنَّبَ» يعني «أقصى». ودارت في رأسها أصوات المذيعين في «صوت العرب من القاهرة» تتحدث عن الغزو الأجنبيِّ لمصر: العدو الصهيوني وأمريكا، حرب السويس، النكسة أو حرب

حزيران ٦٧ التي لم يمضِ عليها سوى أشهرٍ قلائل، جمال عبد الناصر، العدوان الثلاثي على مصر ٥٦، جيوش نابليون بونابرت وأصبح رأسها مثل صحيفة صفراء تضجُّ بالعناوين المخيفة. قبضتْ يد ابنها وسحبتْه من المدرسة، وهرولتْ به ناحية بيت العمدة. وصادفَتْ العمدة وهو خارج من بيته في ذلكَ الصباح، فحكَتْ له قصة المدير مع ابنها، وأنه قد وصفه بالأجنبي، ويريدها أن تذهب لمبنى التحرير بالقاهرة لاستخراج تصريحٍ له بالدراسة. قال العُمدة محتارًا: أجنبي! أجنبي يعني إيه يا ستي؟

قالتْ في ثورة: يعني ابني إسرائيلي يا حضرة العُمدة، بريطاني، فرنساوي

ثم صرخَتْ في استعراضٍ مسرحيٍّ وهي ترمي بيديها في الهواء: الْحَنُوني يا ناس الكَفْر، ولدي درويش طِلِعْ طلْيَانِي، يا سيدي يا رسول الله، ولدي طِلِعْ طلياني.

كان مدير المدرسة قد أعدَّ نفسه للشرح، وأحضر اللائحة الداخلية للقبول بالمدارس التي تخصُّ الأطفال المصريين، ولم تكن هنالكَ فقرة لقبول الأجانب، ولكن العُمدة كان لا يريد أن يفهم؛ لأنه لا يعتبر «درويشًا» أجنبيًّا وهو ابن السيدة «زينب درويش» المصرية التي تنتمي لأسرةٍ عريقةٍ، وجدودها يمتلكون أرضًا زراعيةً شاسعةً، قبل أن تأخذها الحكومة وتترك لهم هذا القليل. وإن أباها «درويشًا» — الرجل الذي سُمِّي على اسمه ابنها الأكبر — كان يغطي عين الشمس، وهو من القلة الذين قاتلوا في حرب ٤٨ متطوعًا في الجيش المصري، وكان وكان ختم العمدة مرافعته قائلًا: سيادة المدير، مافيش أجانب عندنا في الكفر، مافيش طليان، مافيش إنجليز، مافيش يهود تقصد إيه يا بيه؟

ولكي يُجنِّب المدير نفسه شرورًا قادمات؛ مثل أن ينعته العمدة الثائر بـ «الفرنساوي اللقيط»، نسبةً لعينيه الخضراوين وبشرته شديدة البياض؛ حيث يُشاع أنه ورثهما من جدٍّ فرنسيٍّ جاء مع جيش نابليون بونابرت — وهي الشتيمة التي يصفعه بها كلُّ من يتشاجر معه ويريد أن يحطَّ من قدره. فوَّض أمره لله، وقَبِلَ بأن يدخل درويش المدرسة، ويلتحق بأبناء صَفِّه؛ حيث كان قد أكمل في السودان الصَّفَّ الخامس الابتدائي،

في عمر ١١ عامًا بالتقريب المعقول من قِبَلِ المُدير؛ حيث لا شهادة ميلاد لدى درويش، ولم يُرِدِ المديرُ أن يَخْلق مُشكلةً أخرى بالإصرار على طلب شهادة الميلاد الحقيقيةِ للطفل دَرويش، واكتفى بشهادة تقدير العُمر التي لا تتناسب إطلاقًا مع شكل الطفل الذي هو عليه الآن ومرحلته الدراسية، وذلكَ بفارق خمس سنوات، وهي تحمل التاريخ ١/١/١٩٥٠

وظلَّت إشكاليات الهُوية وأسئلتها تطارد درويشًا إلى أن وصل مرحة الجلوس للشهادة الثانوية التي بموجبها سيدخل الجامعة، وهنا عمل بنصيحة الجميع؛ حيث لا يوجد هنالكَ مسئول يخاف لسان العُمدة أو سُلطته، وعليه أن يعود إلى السودان ويجلس للشهادة في مدارس البعثة التعليمية المصرية التي تُسمَّى «مدارس جمال عبد الناصر»، ويمكنه من هنالكَ أن يتقدَّم للقبول بالجامعات المصرية في الكلية التي يُؤهله مجموعه لها دون مصاريف دراسية تُذكر، وسَيُعامَل معاملة الطلاب السودانيين الآخرين الوافدين من السودان، وفقًا لبعض بنود اتفاقية مياه النيل بين الدولتين التي أُنشئ بموجبها السد العالي؛ حيث تتاح فرص محدودة للطلاب السودانيين بالجامعات المصرية. في الواقع، عدد الطلاب الذين يستفيدون من هذه المنحة أكثر من كلِّ الطلاب الذين يتم قبولهم في الجامعات السودانية؛ بالتالي ستكون لديه فرصة كبيرة للدراسة الجامعية، في مصر أو السودان، ولكن أمَّه تفضل أن يدرس في مصر لكي يكون: «تحت نظري وسمعي ويدي.»

عندما التقى بطالب اللجوء السودانيِّ في مركز اللجوء الأول، فرح فرحًا شديدًا وكأنه قد وجد كلَّ أسرته، وأحسَّ بطمأنينةٍ بالغة. كان شابًّا في الثلاثين من عمره، من جنوب السودان، اسمه «غومار كانج» Gumar Kang. رجلٌ قليل الكلام، طيب المعشر، يتحدث العربية ولغة جوبا والإنجليزية. لم يتكلفا كثيرًا للتعرف أحدهما على الآخر باعتبارهما سودانيين، وكان لإدارة المعسكر دورٌ كبيرٌ في ذلك؛ حيث إنهم دائمًا ما يعملون على أن يكون السكن في الغرف متجانسًا على أساسٍ دينيٍّ أو قاريٍّ أو قُطْريٍّ؛ فعندما عرفت المنسِّقة أنه سودانيٌّ وضعته في الغرفة التي بها غومار ورجلان آخران من نيجيريا، ولكنهما قدَّما طلبي اللجوء كسودانيين

من جنوب السودان؛ لأن نيجيريا ليست من الدول التي بها صراعات سياسية وإثنية كبيرة يصبح فيها المواطنون في حالة خطورة على حياتهم. كان النيجيريان يقضيان جُلَّ وقتهما في قراءة كتبٍ عن قبائل جنوب السودان، وطبيعة الصراع بين شعوبه، ويتعلَّمان لغة جوبا من غومار، ويسألانه عن مواقع القُرى وأسماء الشيوخ، وعن كلِّ ما يتوقعان أن يسألهما عنه المُتحرِّي. قال له غومار فيما بعد: النيجيريون يحصلون على اللجوء أسرع من أيِّ شخصٍ له قضيةٌ فعليةٌ وحقيقية. إنهم ممثلون بارعون، والموضوع بالنسبة لهم حياة أو موت، والخواجات يصدِّقون الكذب، ويتشكَّكون في الحقيقة، بل أشكُّ في أنهم يفضِّلون الكذب على الحقيقة، وهذا معروف هنا في معسكرات اللجوء: اكذبْ تُصدَّق، اصدقْ تُكذَّب.

لذا نصحه بأن يكذب ويخترع لنفسه قصةً محزنةً، وعليه أن يصدِّقها أولًا، كما صدَّق النيجيريان أنهما من أعالي النيل، وأنهما هرَبَا للتوِّ من معسكرات الاعتقال الحكومية في مكانٍ ما قريبٍ من مدينة جُوبا، ونسِيَا تمامًا السنوات الخمس التي قضياها في ألمانيا وسويسرا وغيرها من الدول الأوروبية، بحثًا عن عملٍ وإقامة، لكن درويشًا ما كان يعرف الكثير عن اللجوء وقوانينه، وبينه وبين نفسه أيضًا ما كان يريد أن يكذب، يريد أن يقول الحقيقة التي أتتْ به إلى هنا: إنه يبحث عن حياةٍ أفضل وعملٍ مستقرٍّ لا غير. ولو أنه كان خائفًا أن يكتشف المُتحرُّون تاريخ علاقاته مع الجماعات الإسلامية في جامعة «أسيوط»، والذين كان في رفقتهم لسنةٍ كاملةٍ وهو في الصف الأول الجامعي، إلى أن تمَّ اعتقاله وتهديده بالخصي والترحيل الجبريِّ إلى السودان، وحينها تغيرت أفكارهُ سريعًا، وأدرك فداحة مشايعة الإسلاميين المتطرفين. لقد كان منطقُ رجال الأمن قويًّا وواضحًا ومقنعًا، خاصَّة لشخصٍ في بداية حياته، وغالبًا ما يُتهم بأنه أجنبي في بلد أمِّه مصر، ويُسمي «الحَلَبِي» في بلد والده السودان، وهي ليست بعيدةً جدًّا عن «الأجْنَبِي»، وتحتوي على كمٍّ من الإقصاء النفسيِّ والاجتماعيِّ كبير.

النيجيريان العارفان بقوانين اللجوء قدَّما له استشارةً قانونيةً مجانًا ولوجه الله، بالنظر لحالته؛ حيث إنه لا يشبه شعوب جنوب السودان نسبةً لشعره الناعم ولون بشرته الأصفر المائل للحمرة — وهو الأقرب للون

بَشَرَة عامة المصريين — بالإضافة لملامحه الجسمانية العربية؛ مما يسهِّل تمييزه حتى لدى المُحقِّق الذي لا يفهم كثيرًا في شعوب أفريقيا ويراهم متشابهين؛ فنصحوه بأن يدَّعي أنه ضحية مصادرة «الحُريات الشخصية».

– وما هي الحُريات الشخصية؟

أحذوا يضحكون بصورةٍ هستيريةٍ وهم يشرحون له معنى ذلك، ولكنه كان مندهشًا جدًّا. وضع على شفتيه ابتسامةً بلهاء، لا يدري ماذا يقول. لقد بدا له الأمر على أسوأ صورة يمكن أن يتخيَّلها؛ كان النيجيريان جادَّين وواضحَين. أما غومار كانج الذي لم يؤيِّد الفكرة تمامًا، فلا يرى أنها غريبة، بل عكس ذلكَ يرى أنها عمليةٌ جدًّا وحاسمةٌ، وتؤتي أُكُلها سريعًا في ظلِّ عالمٍ يحتفي بالكذبات الكبيرة، ولكن قد تكون لها تبعاتٌ اجتماعيةٌ معقدةٌ في المستقبل. درويش لم تعجبه الفكرة واعتبرها نوعًا من الإذلال أن يدَّعي ما ليس فيه، وخاصةً ما يراه حسب تقييمه مسألة شرف؛ أيْ شيئًا يخصُّ الكرامة الشخصية. من ناحيةٍ أخرى، كيف له أن يدَّعي أنه مثليٌّ وأنه محارَبٌ في بلده نتيجةً لذلك، وفقًا للقانون والشريعة الإسلامية، وهو يريد أن يتزوَّج في يومٍ ما وأن ينجب أطفالًا، كيف سيبرر ذلك؟ وفوق ذلكَ كله هو مُسلم.

شرح له أحد النيجيريين: «ليس هنالكَ شخصٌ سوف يسألكَ عن ذلك. هنا بلاد الحُريات. أنتَ كنتَ مثليًّا homosexual عندما كنتَ في بلدك، ثمَّ تحولتَ إلى غيريٍّ heterosexual، وتريد أن تتزوج وتنجب أطفالًا. إنها قضية تخصُّك أنتَ وحدكَ، وليس لأيِّ مخلوقٍ الحقُّ في السؤال أو الاستفسار لمَ تحولتَ وكيف ومتى. وهذا معنى الحُرية في العالم الحُر يا رجل، يا حُر!»

ولكن ماذا لو واجهني المتحرِّي بأن بعضًا من الذين في مواقع القرار السياسي في بلدي مثليون، وهم يحصلون على احترام الجميع، فالناس هنا يعرفون كلَّ شيءٍ عن بلادنا، بمَ أرد عليه؟

ضحك غومار قائلًا: «قل له: مثلي لمثلي يفرق، ومَن عنده ظهر فلا ينضرب على قفاه، وقل له: المثلي الحاكم هو بالذات الذي يعاقب المثلي المحكوم.»

تخرَّج غومار والنيجيريان في المعسكر إلى مساكن أخرى جماعية إلى أن يتمَّ التحقيق وإجراء المقابلات، ولكن أخبره غومار بألا يقيم في السكن الجماعي، ويطلب من الإدارة أن تتركه يعيش في النادي السودانيِّ بفيينا إلى حين المقابلة، وسوف يجده هنالك؛ لأن النادي مريحٌ وبه سودانيون، ويستطيع أن يمارس حياته الاجتماعية بصورةٍ جيدة، وسيقدِّم له السودانيون مساعداتٍ كثيرةً في التعرف على الحياة، وإيجاد عملٍ في المستقبل، والاتصال بأسرته؛ فميعاد المقابلة قد يأخذ وقتًا طويلًا جدًّا، ربما شهورًا أو أيامًا. لا يدري أحدٌ متى. وأعطاه عنوان النادي السودانيِّ ورقم تليفون أحد الناشطين في الجالية السودانية بفيينا.

في اليوم الذي غادر فيه الثلاثة، أحسَّ بالملل وبطء إيقاع الحياة في المعسكر، وشعر بفراغٍ شاسعٍ لم يسعفه مرجع الصيدلة لشَغْله. الأشخاص الثلاثة الجُدد الذين حلُّوا محل النيجيريين وغومار كانوا أفريقيين، ولكنهم يتحدثون اللغة الفرنسية كلغة مستعمر، ولكنهم غالبًا ما يتحاورون بلغةٍ محلية يتحدثونها بسرعة؛ حيث لم يستطع أن يتبيَّن سوى كلمةٍ واحدةٍ تنتقل بين شفاههم في الصباح الباكر؛ وهي «أُسِي»، واقترح بينه وبين نفسه أنها قد تعني «صباح الخير» أو أية لفظةٍ للسلام، لكن يبدو واضحًا له أنهم من دولةٍ ما على ساحل غرب أفريقيا، قد تكون السنغال، غانا، ساحل العاج أو ناميبيا. لا يعرفون اللغة الإنجليزية؛ لأنه حاول أن يتبادل معهم بعض الجمل القصيرة بها ولم يكن هنالكَ ردٌّ مفهومٌ من جانبهم، بالتالي لم تكن هنالكَ طريقةٌ لتبادل الآراء أو الحكايات. يبدو أنهم كانوا في غاية الإعياء. اعتبر ذلكَ نتيجةً للرحلة الشاقة التي خاضوا غمارها، قال في نفسه: «لا بدَّ أن يكونوا قد قدموا عن طريق البحر فعلًا.»

كان يقضي النهار نائمًا لا يستيقظ إلا على صوت الميكروفون داعيًا لوجبة منتصف النهار، ثمَّ لوجبة العشاء. كان الطعام دائمًا باردًا ومملًّا ولا يستطيع بلعه إلا بصعوبة. لم يشعر بذلك عندما كان في صحبة النيجيريين وغومار، كانوا مرحين ويطلقون النكات في كلِّ شيءٍ، ويسخرون من كلِّ شيءٍ حتى أنفسهم، يتناولون الأطعمة بشهيةٍ متمسكين بالحياة؛ أي إنهم يأكلون بهدف ألا يموتوا الآن وليس أكثر. وهذا دافعٌ كافٍ لأن

يجعله يأتي على اللحم البارد الماسخ، ويحتسي العصير الشاحب اللون ذا السُّكَّر الكثير الذي يخدش الحلق، برائحته التي هي أقرب لشمِّ بلسم السُّعال الدِّيكي؛ تناوله كثيرًا وهو طفل.

عندما ذهبوا، ذهبوا بروحهم أيضًا. نستطيع أن نقول إنه يشعر بالوحدة والغربة والتشوُّق إلى الصُّحبة، وبدأ يتذكر ناديا. يتذكرها بقوة ويتمنى أن يعرف أين هي الآن، في أيِّ موقع، كيف ذهبتْ معها المصائر؟ فلقد افترقا في محطة «فستبانهوف» Westbanhof، في غرب فيينا، بعد أن تناولا وجبةَ إفطارٍ سريعةً في أحد مطاعم المحطة، ولم يفيقا من دهشتهما بعدُ؛ حيث إن فستبانهوف هي أكبر محطة قطارٍ يريانها في حياتهما، حيث كانت في ذاكرة كلٍّ منهما «محطة رمسيس» بالقاهرة أكبر محطة قطارٍ شاهداها في تجوالهما في البلدان. قبَّلا بعضهما البعض في خجل، حيث كانا يظنَّان أن كلَّ الذين في المحطة ينظرون إليهما؛ ومن ثمَّ افترقا بغير تبادل عناوين؛ حيث ليست لهما عناوين، وليست لديهما تليفونات جوَّالة، ولا يدري أيٌّ منهما أين يستقرُّ به المقام، ولكنهما كانا يشعران بأنهما سيلتقيان يومًا ما في مكان ما. ناديا سَلَّمتْ نفسها للبوليس في المحطة ذاتها، وكان يراقبها هو بينما تتحدث مع رجلٍ يرتدي زيًّا رسميًّا كُتب عليه كلمة «أمن» في الظهر وأخرى في الصدر؛ ومن ثمَّ تتبعه ويمضيان. ترشقه بنظرة وداعٍ خاطفةٍ حارقةٍ باقيةٍ للأبد. يختفيان عن ناظريه في سيل البشر الغادين والآيبين.

أما هو فتحسَّس حقيبته الصغيرة كما يتحسَّس وزير ثقافة مسدسه كلما رأى شاعرًا. مسح المحطة بنظرةٍ أخيرة، ثمَّ حمل خطاه عبر البوابة الكبيرة نحو الخارج. لم يكن خائفًا من شيء، يعرف عن فيينا أنها من المدن الأكثر أمنًا في العالم. كان يتفرَّس أوجه الناس علَّه يتعرَّف على وجهٍ سودانيٍّ أو مصري، ولكنْ هنا الأوجه تتشابه؛ كلُّ السُّود يشبهون كلَّ السُّود، وكلُّ البيض يشبهون كلَّ البيض، نساءً وأطفالًا ورجالًا، الشوارعُ تتشابه، والشرطيون يشبهون الشرطيين، والسيارات التي تسير ببطءٍ وتتوقَّف بأدبٍ عند إشارات المرور تشبه تلكَ السيارات التي تسير ببطءٍ وتتوقَّف بأدبٍ عند إشارات المرور للسابلة القلِقين. السَّماءُ صافيةٌ جدًّا.

وتذكَّر هنا قول ناديا له عندما خرجا من بيت الفلاح في ذلكَ الصباح الباكر نحو محطة القطار؛ حيث إنها حملقتْ في السماء، ابتسمتْ وقالتْ له: يا لها من سَمَاءٍ صافية؛ لدرجة أنه بالإمكان مشاهدة الملائكة!

كانت ناديا مؤمنة، بل شديدة الإيمان، وهي تُحمِّل كلَّ نجاحاتٍ تصيبها للرب، كما تحمِّله أيضًا مسئولية إخفاقاتها الكبيرة، ولكنها دائمًا ما تشعر به حولها، في كلِّ شيء، وهي أيضًا كانت تقول له: «إنني لا أخاف من الله، لأنني أحبُّه، وأقبَلُ حياتي كما هي، وأقبَلُ الله كما هو، فلستُ مسئولةً عن شيءٍ أقوم به، هو المسئول.»

تَمشَّى في وسط المدينة إلى ما بعد منتصف الليل، إلى أن غدت الشوارعُ شبه خاليةٍ من المارة العجولين، والمتسكِّعين أيضًا مثل السُّياح الصينيين واليابانيين الذي يمشون جماعاتٍ بهدوءٍ وفي أياديهم كاميراتٌ يصوِّرون بها كلَّ ما يقع في عيونهم الصغيرة الدقيقة، التي تَرى جميع الأشياء ولا تُرى في ذاتها. نامت السيارات وحافلات نقل الركاب الكبيرة. كانت ناديا دائمًا في باله، ولكن أكثر ما يؤرقه ويتمنى ألا تكون جادَّة فيما قالت: «ربما أكون قد حَملتُ منك؛ إنها أيام الإخصاب عندي. على كلٍّ، ذلكَ لا يسبِّب قلقًا كبيرًا. لقد استمتعتُ بكلِّ لحظةٍ قضيناها معًا. وهذا مجرَّد ظنٌّ لا أكثر.» هل كانت تعني شيئًا بعينه من وراء ذلك؟ كان دائمًا يُحِسُّ بأنه لا يفهمها بالصورة المطلوبة. أليست هي من قالت له من قبل: «لا يَدَّعي فَهمَ النساء إلا الذي لا يعرفهن!»

ثمَّ سَلَّمَ نَفْسَهُ للشُّرطِيِّ.

السيدةُ لُوديا شُولز

«توني» كان وسيمًا، لكن ليس «جدًّا». هذه ملاحظة أكَّدتها نُورا زوجة هاينرش. يطلق شعر رأسه بصورةٍ تجعله أشبه بالهيبيز في سبعينيات القرن الماضي. كان يرتدي قميصًا وبنطالًا أبيضين نظيفين، وتبدو بشرته المشربة بالحمرة عبر القميص واضحة. له عينان خضراوان ووجه شبه مُستدير. ذقنٌ شاحبةٌ قصيرةٌ ومقصوصةٌ بعنايةٍ واهتمام. كان شكله معقولًا بالصورة التي تجعله يبدو مُهذبًا جدًّا ومحترمًا وذكوريًّا بدرجةٍ كبيرة، إذا استثنينا حلقة الذهب الصغيرة التي يضعها في حلمة أذنه اليُسرى. كان لطيفًا، ولكنْ لم يكن هاينرش يراه كذلك؛ كان في نظره مجرَّد وحشٍ جنسيٍّ مخبول. لم يفكر فيه بصورةٍ إنسانيةٍ صديقة، ولو أنه بادله البسمات، وأطلق بعض النكات الثقيلة في حضوره. في الحقيقة، هي بعض النكات المكرورة التي يعرفها أهل بيته وكلُّ زملائه في العمل منذ سنوات. لم تتبدَّل ولم يزِد عليها شيئًا، فقط قد يختار منها واحدة ويهمل البقية. ولكن توني بقي في مخيلته مجرَّد وحشٍ بشري. ربما أحسَّ الشابُّ بذلك، ولكنه أيضًا كان يقود معركته بطريقته الخاصة، مندفعًا بحبه المتبادل مع السمراء الساحرة ميمي.

أما نُورا شُولز فكانت تحاول دائمًا أن تلطِّف الجو، ولو بجملٍ وحركاتٍ تبدو — في الغالب الأعمِّ — شَتْراء وغير مُتَرابطة، وهي أيضًا تعتمد على ما تسمِّيه «طيبة قلب الأب» وما به من خيرٍ تجاه ابنته؛ ذلكَ الخير الذي يفشل درويش في التعبير عنه دائمًا بالطرق التي تعرفها نُورا

وابنتها، ويرجوها المجتمع المحيط. تمطَّى درويش ثمَّ تثاءب قبل أن يقرِّر أنه يُحِسُّ ببعض الصداع ويريد أن يذهب لحجرته. تنفَّست نُورا الصُّعداء، ارتبكت قليلًا، شيَّعته بنظرةٍ حانيةٍ وهو يتدبَّر طريقه إلى حجرة النوم حافي القدمين، تاركًا خلفه نعال البيت البلاستيكية الخفيفة، كأس العرق فارغًا، كتابًا عن المداواة بالأعشاب اشتراه في آخر زيارةٍ له للقاهرة قبل شهرين تقريبًا.

بعدما احتسى ثلاثتهم نخب اليوم السعيد، من نبيذٍ أحمر، ادعت ميمي أنهما سيشاهدان فيلمًا قصيرًا على «اللاب توب» في حُجرتها، ومضيا. وضع رأسه على المخدة، حاول أن ينام.

البنت والأب

كانت ابنته تحتمي بظهر أمها التي استيقظت من النوم مذعورة، وقد تجمَّع بعض الجيران نتيجةً لسماع الجلبة، وكان درويش يصرُّ على ذبح البنت الآن وهنا، وابن أخيه وبعض رجال الجيران يمسكون به، ولكن أمَّه العجوز عندما قَدِمتْ، حلَّت الإشكال باقتراحٍ واضح؛ فالبنت أنكرت أنها كانت خارج المنزل، قالت إنها كانت في المرحاض عندما جاء والدها درويش لحجرتها؛ ولم يجدها لذلك السبب. أما درويش فيؤكِّد أنها كانت في زقاق الرجل الميت مع رجلٍ ما، وشاهدهم بعض المارة وهُم متأكِّدون من أنها هي، فهمست أمُّه العجوز في أذنه بأن يعود ومعه الرجال إلى الديوان، وهي سوف تقوم بحلِّ الإشكال، كما أنها همست له في أذنه بالحلِّ المقنع، فعاد أدراجه وهو يتحدث إلى نفسه (أمْ إلى الآخرين؟) ما كان يميِّز شيئًا.

كانت القابلة ومعها الأمُّ العجوز وأمُّ ابنته التي بدت له في تخيلاته في صورة نُورا شُولز في الحجرة، وعلى لحافٍ مفروشٍ على الأرض ترقد ابنته وهي ترتجف، وبين دموعها تقسم للجميع بأنها بريئة، لكنهن أصررن على رؤيته والتأكُّد بأنفسهن من أنه كما خاطته لها القابلة ذاتها قبل ١٥ عامًا.

قالت إنها لا تقبل بأنْ تدَعهنَّ يَرينَه مهما كلَّفها ذلك، ومهما كانت الأسباب.

قلن لها: «إذن سيقتلكِ والدكِ درويش، سيذبحكِ كما تذبح الشاه. إذا لم يكن الليلة فغدًا. وهو لن يقتنع إلا إذا تأكَّد من أنكِ بريئة، ولا يمكن إثبات براءتكِ إلا بهذه الطريقة.»

ولكن كما يقولون: «الكثرة غلبت الشجاعة.» فأمسكن بها بالقوة وفرَّقن ما بين فخذيها، بعد أن قمن بتحرير اللباس الصغير، ومن ثمَّ أخذت النسوة يتفرَّسن فيها، بل حاولت القابلة إدخال إصبعها الصغير، وهو المقياس الشعبيُّ للعذرية. ولحسن حظِّ ابنته، فإن القابلة لم تستطع أن تولج إصبعها ذا الظفر الطويل القذر فيها.

قالت: «عايزة قلم بك. هل يوجد قلم بك في هذا المنزل؟»

شرخت الزغاريد صمت الليل؛ مما أيقظ ما تبقَّى من بشرٍ نيام بالقرية، وأفزع ديكًا فأخذ يصيح، ونهق حماران، وتدافعت عشرات الأقدام تسبح في الظلام نحو البيت الصغير الذي يشهد محنةً من نوعٍ خاص.

أُطلِقت ابنتُه، تركنها تغرق في دموعها الحزينة. جاءته النسوة وأخبرنه بأن بنته عذراء ولم يمسسها إنسٌ مِن قبلُ ولا جان: «والله على ذلكَ شهيد.» وأن البنت التي تمَّت مشاهدتها في زقاق الرجل الميِّت قد تكون جنيةً في شكل ابنته؛ لأن الرجل كان غريبًا عن القرية، فإنهم لم يستبينوا ملامحه؛ فهو بالأحرى جنيٌّ. كما أن ذلكَ الزقاق مَسْكونٌ بالشياطين والأرواح التائهة الشريرة، وهو زقاقٌ ملعونٌ، ويعرف ذلكَ كلُّ من في القرية: «مبروك يا دكتور درويش؛ ابنتكَ شريفة.»

في الليلة نفسها أُحضِر المأذون، وقام بعقد قرانها لابن خالها الذي قد أبدى إعجابه بها أكثر من مرةٍ في أكثر من مناسبةٍ، ورغب في زواجها بصورةٍ واضحة، ولو أنه يكبرها بثلاثين عامًا، ولكنها رفضته في الماضي رغبةً منها في إتمام دراستها. أصبحتْ الآن له زوجة ثانية، دون استشارتها. المقصود أنه لم يهتمَّ أيٌّ كان بأخذ رأيها في هذه المرة؛ فعندما تكون هنالكَ جيفة كلبٍ متعفِّنة، فإن القرويين يهتمُّون بالتخلص منها أكثر من اهتمامهم بالتعرف على هُوية من قتل الكلب، أو هُوية الكلب نفسه. وبذلك قُفِل ملفُّ البنت.

انقلب على جنبه الأيسر، جذب نفسًا طويلًا من الهواء. كانت الأفكار تشتعل في رأسه مثل جحيمٍ شاسعٍ من الخيبات. استعرض كلَّ حياته في شريطٍ سينمائيٍّ موهوم. لم يصل إلى نتيجةٍ تصوِّر له حياته كسلسلةٍ متواصلةٍ من الفشل والخنوع، بل الجُبن والخيبة؛ لأن خياله كان يقوده

لنتائج في غالبيتها إيجابية، وهو يريد أن يغرق في الحُزنِ إلى أذنيه، يريد أن يُحِسَّ بتأنيب الضمير على قبوله بالأمر الواقع: أن تفعل ابنته الحرام ويزني بها رجلٌ غريبٌ، أمام عينيه، بل بمباركته هو شخصيًّا في الغرفة المجاورة لغرفته، وعليه أن يبتسم! أليس ذلكَ ما يُسمَّى في الدين الإسلامي «الدَّيُّوث»؟ وفي شارع بلاد أبيه يُعرف بـ «المُعَرَّص»، و«ابن الكَلْب» في موطن أمِّه؟!

سمع صوت وقع قدمَيْ زوجته وهي تتجوَّل في غرفة المعيشة، ثمَّ جاءته داخلةً وفي فمها ابتسامةٌ شاسعة: «ما رأيك في تُوني؟» أعطاها ظهره مخفيًا وجهه عنها، حتى لا ترى دموعه الغزيرة سائلةً على شفتيه المتورمتين من الغضب والحُزن، بجانب عينيه المحمرَّتين كجمرتين موقدتين من الجحيم مباشرة.

لأوَّل مرةٍ في حياته يُحِسُّ بخطأ فصل بنته من حصص الدين الإسلامي، ربما اكتسبتْ تلكَ القيم التي تمنعها من الخلوة برجلٍ حتى إذا كان المجتمع وأمُّها لا يريان مشكلةً في ذلك. كثير من القيم الإسلامية تلائمه تمامًا. نعم قد يصعب تطبيقها في المجتمعات الجديدة، ولكنها تجد استحسانًا عنده، وعارضها في كثيرٍ من الأحيان. لا يعني ذلكَ أنه يكفر بها، ولكن للظروف أحكام، والإنسان الحكيم هو الذي ينحني للعاصفة حتى تطوِّح به على الأرض. نعم، كلُّ ما يأخذه بيدٍ يدفع مقابله بألف يدٍ أخرى. أخذ يُحِسُّ بالذنب وتأنيب الضمير، ولكن ذلكَ الإحساس بالذنب تراجع بسرعة، كصخرةٍ أُطلِقتْ من قمَّة جبل، عندما تذكَّر السبب الذي أوقف به ابنته عن الذهاب لحصص الدين الإسلامي ومقاطعة دروس المعلم الآسيوي، قال في سرِّه: «قد نكون الآن من ضمن الموتى، وقد تكون هي الآن في سجنٍ مظلمٍ في مكانٍ ما.»

سِيرَةُ المَرأةِ

في فقرةٍ ما من هذه الرواية، تحدَّث الراوي عن حُبٍّ نُورا شُولز لدرويش أو حبِّ درويش لها، أو حبهما لبعضهما البعض. في الواقع، ذاك ليس دقيقًا، أو فلنقل إنه ليس واقعيًّا إذا تتبعنا سيرة الرجل والمرأة، وكيف أنهما التقيا وتزوَّجا. وليست تلكَ قصة طريفة أو مشرِّفة، وليست مدهشةً أيضًا، ولكنها لحدٍّ ما مهمة، ويُصرُّ الراوي على حكيها:

كان درويش أو هاينرش يعمل مُخَرِّيًا لكلاب الأم شُولز — وهذا معروف لدى الجميع — وعندما تعقَّدت الحالة الصحية لدى الأمِّ شُولز وشارفت على الموت؛ بالذات في اليوم الذي قال الطبيب لها فيه مباشرة وبوضوح تام — فلنذكر أنه قالها بالطريقة التي تفرضها عليه الأمانة الوظيفية والعلمية: استمتعي بما تبقَّى لكِ من شهورٍ قليلة. وقد تحدث مُعجزة، ولكن ليس دائمًا ما تحدث. وهذا لا يعني أنها لا تحدث كثيرًا. ما لدينا مؤشراتٌ عامة، ولكن الله لديه التفاصيل والمعرفة الكاملة والمعجزة أيضًا.

وربما لو كانت تؤمن بالله لأكرمها المولى بإحدى معجزاته المُدهشات، فتعيش مدةً أطول؛ بالتالي سيتأخر زواج هاينرش وابنتها كثيرًا، ولكنها طلبتْ من الطبيب أن يشرح لها أكثر لماذا عليها أن تموت، وأن يقنعها بذلك، وفعَل. أما الله، فهي تخلت عن الإيمان به منذ أكثر من ثلاثين عامًا، يوم أن قدَّمت طلبًا للبلدية بالانسحاب من الكنيسة. لطالما كانت — ربما لسوء تقديرٍ أو لجهلٍ منها — لا تفرِّق بين الكنيسة وبين الله. في ذلكَ

اليوم بالذات، وبعدما غادرها الطبيب، قالتْ لهاينرش، الذي كان اسمه درويشًا في ذلكَ الوقت: أنا عندي بنت اسمها نُورا.

قال لها درويش: نعم، أعرف ذلك، يتحدث الناس عنها أحيانًا.

قالت له دون أن تبدو عليها الدهشة: ما كنتُ أستبعد ذلك! هي بنتٌ غير بارة، وأنا كنتُ أيضًا أمًّا سيئة، لم أهتمَّ بملحوظاتٍ ذات أهميةٍ كبيرةٍ كانت تُبديها لي بين وقت وآخر، إلى أن حدثت الكارثة، فقتل أبوها نفسه. في الحقيقة، لا يدري أحد ما فعل بنفسه. كان يكبرني بعشر سنواتٍ، ولم يبدُ عليه الانحراف بصورةٍ شاذة، وأظنُّ على الرغم من تناقضه وما يظهر عليه من خبلٍ أحيانًا، إلا أنه كان راجح العقل متزنًا، بل أستطيع أن أقول: كان متديِّنًا، أو على الأقل: مؤمنًا بوصايا موسى العشر، ولكنه لم يستطع أن يتخلَّص من عقدة اشتراكه في الحرب إلى جانب هتلر، ولو أنه لا يحبُّ أن يتحدث عن ذلكَ أبدًا، وعندما يتحدث — وذلكَ نادر — كان يقول إن الأمر فُرِض عليه، وكان شابًّا يافعًا في ذلكَ الوقت، كما أنهم زيَّفوا له الحقائق، والأهم: ما كان لديه الخيار؛ فإمَّا أن يَقتُل وإمَّا أن يُقتَل. وهذان خياران وحيدان لكلِّ من يجد نفسه في ميدان معركةٍ به آلافٌ من الذين يحملون أسلحةً ومستعدون للقتل أو الموت. على كلِّ حال، لقد أثرت عليه الحرب كثيرًا، وإلا كيف يجرؤ على تلكَ الفِعلة الشنعاء غير الأخلاقية؟ لا أدري إذا ما استطعتُ أن أوصِّل لكَ فكرةً عما كان عليه أبوها أم لا. إنه ملاكٌ وشيطانٌ في الشخص ذاته. لقد صنعتْ منه الحربُ مسخًا. ما يهمُّ في الأمر أنه لم يعُدْ موجودًا في مكان يعرفه الناس، ولا أظنُّ أن له عنوانًا. وفقًا لنصيحة ورأي الراعي الاجتماعي تمَّ إجهاض الجنين. كان ذلكَ أيضًا خيارًا راجحًا وأخلاقيًّا. لم أرَها منذ آخر مرة زرتُها في المستشفى. ولكنني أتتبع أخبارها؛ فهي تعيش الآن بـ «سالزبورج»، أو كانت تعيش هنالكَ حتى أشهر قليلةٍ ماضية. على الضفة الغربية من نهر «سالساخ» Salzach عند المدينة القديمة، تبيع رسوماتها للسُّياح عند الكوبري، وتقيم مع بعض الأصدقاء في مبنًى شبه مهجور، قُرب المستشفى القديم، يديره المكتب الاجتماعي لمدينة «سالزبورج» تحت صخرةٍ جيريةٍ ضخمةٍ. اسمها نُورا، وما زالت تحتفظ

باسم عائلتي «شُولز»، ولكنهم يدعونها «نورا اشتادكند» Stadtkind، معروفة في وسط أصحابها والشرطة بنورا اشتادكند. تركتُ لها بعضًا من المال في وصيتي لدى المحامي، قد لا تقبل به، ولكنها تحتاج إليه بشدة. يُقال إنها تستهلك ما تكسب بسرعةٍ بالغة. قد تتعاطى المخدرات؛ فهي شائعةٌ بين المتشردين أو الذين يتبعون الأسلوب ذاته في الحياة؛ أقصد الحياة المنفلتة التي أصبحت أسلوب الكثيرين من جيل ما بعد الحرب. عندما أرحل، عليكَ الاتصال بها. هي عنيفةٌ بعض الشيء، ولا تثق في أيِّ شخصٍ بسهولة. يصفونها بالعنيدة، ولكن قلبها طيب. لقد جنَت الحياة عليها كثيرًا. قلبها طيبٌ يا ابني درويش. وهذا كل ما تبقى منها، وأظن أنه إذا كان القلب طيبًا لا يكون الخراب كبيرًا. عندما أرحل، اتصلْ بها أرجوك، ولكن ليس قبلما أرحل.

سألها سؤالًا ساذجًا، أو أحس بأنه كذلك: لماذا لم تتركيها تقيم معكِ؟

ردَّتْ ببساطة: لقد اختارت تلكَ الوضعية بنفسها، فهي تحمِّلني كثيرًا من اللوم على ما حدث لها، ولكن والدها كان شخصًا مبتلًى بالمخدرات والخمور وذكرى الحرب المندسَّة في لا وعيه، وذلكَ أضرَّ بعقله أيَّما ضرر؛ جعل منه مخلوقًا أقرب للحيوان منه للإنسان، وقد فقد وظيفته في الولاية، ثمَّ اختفى. وأظن قد قتله الندم في مكانٍ ما. لقد كان ذا ضميرٍ يقظ، وإلا لما أثَّرت فيه الحرب.

لعب بعقل درويش حبُّ الاستطلاع. يريد أن يرى الفتاة، يريد أن يتعرَّف عليها ولو من بعيد، يريد أن يعرف كيف تعيش. التفاصيل التي قدَّمتها له أمُّها الآن ربما لا يعرفها أحد، أو قد يعرفها الناس جميعًا إلا هو. كانوا يتحدثون عنها كعاقَّة ليس إلا. أما أمُّها فتتحدث عنها كضحية؛ كضحيةٍ لها هي بالذات ولأبيها. ربما إذا التقى بها سيعرف الحقيقة (إذا كانت هنالكَ حقيقة في الأصل). يريد أن يلتقي بها. أصبح الأمر مهمًّا وضروريًّا بالنسبة له. قد لا يعي لماذا، ولكن من منطقةٍ غامضةٍ في دهاليز اللاوعي تشكَّلتْ رغبةٌ عنيدةٌ في أن يلتقي بها، ويتحدَّث معها، ولكنه لا يستطيع أن يغادر المدينة إلا لساعات؛ نسبةً لارتباطه الوثيق بلُوديا وكلابها، إلى جانب رعايته لكلبين آخرين لرجلٍ ثريٍّ مريضٍ

زوجتُه كثيرة الأسفار؛ فهي التي تقوم بالإشراف على الأعمال التجارية التي تخصُّهما. كما أنه لا يستطيع أن يأخذ إجازة نهاية الأسبوع (وهي الإجازة المتاحة للجميع بواسطة القانون) ما لم يحلَّ محلَّه شخصٌ ما؛ فلم يعد ما يربطه بعمله الواجبُ الوظيفي، ولكن الواجب الإنساني؛ فهو إلى جانب رعاية الكلاب كان يقوم بمساعدة «لُوديا» و«ولوفقانج» في أمور كثيرة، منها التسوق، وأحيانًا كثيرة كان يصطحبهما في جولةٍ حول الحديقة أو البحيرة وهما على مقعدين متحركين. ولو أن كثيرًا من المرضى يفضِّلون بيوت العجزة، إلا أن البعض يريد أن يعيش حياته في البيت الذي يحب؛ ذات الجدران التي تحتفظ له بذكرياتٍ كثيرةٍ مثيرةٍ، حتى لو كان بعضها حزينًا؛ فالذكريات الحزينة أيضًا عندما يمرُّ عليها الزمن تفقد طابعها المؤلم، وقد تصبح مجرَّد طُرفةٍ، وفي أسوأ الأحوال جزءًا من ماضٍ تعلمتَ منه الكثير، وطالما لم يقتلكَ (كما يقول المهاتما غاندي) فقد جعلكَ أكثر قوة. نتيجةً لتلك العلاقة الحميمة بين البيت الذي هو الحياة وبين الشخص؛ فإن البعض لا يغادر منزله إلا للقبر. وكانا من ذلكَ النوع. قالت له يومًا ما: تكفي المعاناة التي تكبَّدتها من أجل دفع أقساط هذه الشقة حتى تصبح ملكي، ذلكَ وحده يكفي لكي أتمسَّك بها للأبد. دعكَ من تلكَ الجراح العميقة!

لُوديا سيدةٌ معاقةٌ، ولكنها قوية جدًّا، تقضي معظم وقتها في القراءة، وهي أيضًا ماهرةٌ في الطَّباخة وهي على كرسيها المتحرك. كانت تطبخ له ولها كلَّ يوم، وتبتكر في كثيرٍ من الأحايين وصفاتٍ جديدةً تمامًا لم يصنعها شخْصٌ من قبل، وتصبح فخورةً بها في الأيام التي يغادرها فيها الحزنُ والخوفُ من الموت؛ ذلكَ القَدَرُ الذي تعمل جاهدةً على تجاهله منذ أن سقطتْ من قمَّة الصخرة في عيد ميلادها الخمسين. كان الموت هاجسها الأول، بما يعني الحياة؛ أي تعلُّقها بالحياة يجعلها أكثر رهبةً من الموت؛ فالموت يعني لها العدم، ولا شيء غير ذلك. العلاقة بينها وبين درويش كانت علاقة أسرية بمعنًى أو بآخر، وكانت تُشعره بأنه ابنٌ لها أكثر مما هو مُخَرٌّ لكلبيها؛ لذا فهو دائمًا ما يشعر بأنه في بيته، ولم يكن موضوع الإجازات مُلحًّا.

والشيء الآخر هو أنه في انتظار قرار الاستئناف من مكتب اللجوء، الذي قد يكون بالرفض أيضًا، وهو القرار المُرجَّح. ولكنه سيستأنف، وسيستأنف، وسيستأنف إلى ما لا نهاية؛ فلقد دخل أوروبا وعليه ألا يخرج منها إلا وفي جيب سترته جوازٌ وجنسيةٌ من إحدى الدول الأوروبية المحترمة؛ فالحياة واحدة، ويريد أن يعيشها كشخصٍ مُقدَّرٍ ومُحترَم؛ يقصدُ كإنسانٍ ليس من همومه لقمة العيش. وهذا الحقُّ في بلادٍ يحكمها لصوصٌ متطرفون دينيًّا لا يمكن أن يتحقَّق. وهو غيرُ معنيٍّ تمامًا بتحقيق تلكَ الشروط في بلده، وقال ذلكَ مرارًا لأصحابه: ستدفع أوروبا ثمن احتلالها لبلداننا غاليًا، وسنسترد ثمن قطن الجزيرة، وصمغ كردفان، وبطاطس جبل مُرَّة، بل سيف المهدي الذي أهداه السيد «عبد الرحمن المهدي» لملكة بريطانيا.

بالطبع ما كان درويش يعلم أن الحكومة البريطانية قد أعادت السيف للحكومة السودانية؛ لأن الملكة لا تقبل الهدايا الشخصية. ولسخرية القدر، اشترى السيفَ الرجلُ الذي صنعه بيديه وأهداه للإمام المهدي سابقًا. وقال: إنه سيستردُّ ذلكَ يوروهات وسلامًا ورعايةً صحيةً واجتماعيةً، وعن طريق العمل والجهد؛ فهو مؤهلٌ لذلك.

ولم يكن نادمًا على أنه لم يكذب على المُحقِّق بالادعاء بأنه مثليٌّ محرومٌ من حقوقه في بلده، ولم يقل له إنه سياسيٌّ مطارد، ولم يقل له إنه محكومٌ عليه بالإعدام، وإذا عاد سيقتلونه بوحشية. قال له الحقيقة مجردة: «أنا أريدُ أن أعيش في بلدٍ به رفاهية، وأن أجد عملًا جيِّدًا، ومستقبلًا سعيدًا لأبنائي عندما يكون لي أبناء. أنا أبحث عن وظيفةٍ مربحةٍ واستقرار ليس إلا.» وكان هذا هو الخطأ المُميت؛ فالمحققون يحبُّون الكذبات الكبيرة، يصدِّقونها دون أدلةٍ إذا كانت مبتكرة؛ لذا أعطوه رفضًا Negative.

وافقت لُوديا على أن يقضي يومًا كاملًا حيثما شاء، إذا وجد مَن يتمشَّى بالكلبين مرَّتين في اليوم، شريطة أن يبيت في المنزل وليس بعيدًا. وكان هذا اتفاقًا غير مكتوبٍ منذ أن أقام معها في شقتها في «٥ بانهوف استراسا، الطابق الأرضي». فأوكل مهمَّة رعاية الكلاب إلى صديقٍ مهاجرٍ مقابل أجر يومٍ كاملٍ.

لم تكن نُورا متوحشةً (بالطبع هذا انطباعٌ أولي). كان شعرها المائل للحمرة تتخلله بعض الخصل الذهبية، كثيفًا يغطّي جانبًا كبيرًا من ظهرها، ووجهها أيضًا وهي تنحني على الورق وترسم بدقّةٍ البنايات المقابلة للنهر من جهة القلعة الكبيرة الملصقة على قمّة «جبل القمر» Monchsberg. كانت نُورا سمينةً بصورةٍ ملحوظة. ليست سمينةً جدًّا، ولكنه يستطيع أن يطلق عليها «سمينة» فحسب. وكان حولها بعض السياح اليابانيين والكوريين بكاميراتهم التي هي جزءٌ أصيلٌ من شخصياتهم وكأنما وُلدوا بها. تجلس ليس ببعيدٍ عنها فتاةٌ في عمرها تقريبًا، أي أواسط العشرينيات، ذات شعرٍ أسود مصففٍ بذات الأسلوب، وبشَرةٍ داكنة، نحيفةٌ فارعة القوام، وتبدو مثل فتاة من الروما Roma. على منضدةٍ أمامها، تُوضع اللوحات المنجزة للقصور والطرقات والفنادق العريقة بالمدينة القديمة، وبعضها لوحاتٌ للنهر. وهي التي تقوم بالبيع للراغبين في الشراء. بالطبع يمكن الحصول على صورةٍ تذكاريةٍ مع صانعة اللوحات «مجانًا»، كما هو مكتوبٌ في لوحةٍ صغيرةٍ موضوعةٍ على المنضدة مكتوبةٍ باللغة الإنجليزية، وعندما يرغب الزبون في ذلكَ تصيح الفتاة: نُورا، صورة لو سمحتِ.

وهنا عرف درويش أيهما نُورا، ولو أنه حدس ذلك. حسنًا، كانت بها ملامحُ كثيرةٌ من أمِّها. ليس الشعر فحسب، ولكنْ المقلتان الكبيرتان الحزينتان، وذلكَ الفم الواسع الشبيه بفم الإيطالية «صوفيا لورين».

لم تكن اللوحات غالية الثمن؛ فكان سعر اللوحة مائة شلن فقط. بالطبع لا يعرف درويش قيمة اللوحات. ليست لديه خبرةٌ في الفنِّ التشكيلي، ولكنه رآها جميلةً جدًّا، ودقيقةً جدًّا أيضًا، وأعجب بالسرعة وبالجهد اللذين تبذلهما نُورا في صُنعها. لم يكن ضمن خطَّته أن يفاجئها بشيء. كلُّ ما يريده هو أن يتعرَّف عليها عن قربٍ، وفي صمت. «لم تكن متوحشة.» هذا ما توصَّل إليه على الرغم من أنه لم يرَها تتحدث. كانت صامتةً طوال الوقت، ما عدا كلمات الشكر والمجاملات التي تلقيها على الزبائن من وقتٍ لآخر باللغة الإنجليزية؛ حيث إن معظم الزبائن من

الأجانب. اشترى لوحةً، وطلب أن يتصوَّر معها، ولكنْ أن يكون ذلكَ بعدما تخلِّص عملها. ابتسمت إليه وقالت بالألمانية: Genau.

لا يبدو عليها أيٌّ من علامات التشرد التي يعرفها كما هي في مصر أو السودان، ولا حتى البعض الذين شاهدهم في أثينا. كانت طبيعيةً جدًّا، وتلبس رداءً من الجينز أزرق، وبلوزةً قصيرة الأكمام بيضاء اللون، وتضع شالًا حول عنقها، وما يظنُّ أن الجوَّ يحتاج لأكثر من ذلكَ بالنسبة للمتشردين وغير المتشردين؛ فشمس يوليو ساطعة، وحرارة الجو ما فوق العشرين، وبخار الماء يجعل الجوَّ أكثر دفئًا على الشاطئ. كانت سمينةً ذات بشرةٍ ورديَّة. تبدو بصحةٍ جيدةٍ ولا ينقصها شيء، ولو أن السِّمنة في أحيانٍ كثيرةٍ تشير إلى عدم توازنٍ نفسي. لاحظَ أن أصابعها كبيرةٌ لحدٍّ ما، ولكنها تبدو تحت ألوان الزيت مثل أصابع طفلة مشاغبة.

كان السياح الآسيويون يعبرون صامتين، يصوِّرون كلَّ شيءٍ مهما كان عظيمًا ومدهشًا وثريًّا؛ كمجوهرات وتحف شارع «جترايدقاسا» Getreidegasse، أو عريقًا مثل قلعة «جبل القمر» Monschberg، أو ضئيلًا ولا يمكن ملاحظة وجوده؛ مثل دودةٍ صغيرةٍ تعبر الطريق، طائر دوري يلتقط كسرة خبز، غراب يحجل على الشاطئ، وزتين تسبحان مع التيار، نورس نهري يلتقط بعض الأسماك، نحلة صغيرة تمتص رحيق زهرة تيولب، امرأة ترسم بصمت، موجة فجائية. حزينة ترتطم بصخرة ملساء على الشاطئ قرب رِجْلِ رَجُلٍ عجوز، برج كنيسة يبدو من بعيد مُلوَّحًا بأجراسه الصفراء عبر الأشجار. يشيرون إلى الأشياء مُنَبِّهين بعضهم البعض بأدبٍ وأصواتٍ أقرب للهمس أو التراتيل السرية السحرية، قد تفرضها الحاجة للتمتع وإدخال البهجة في نفوس بعضهم البعض، أو الرغبة في إقناع أنفسهم بالاستغلال الأمثل لما أُنفِق في هذه الرحلة الفريدة التي قد تكون رحلة العُمر إلى مدينة الموسيقى التي سمعوا عنها كثيرًا، وربما شاهدوا فيلم «صوت الموسيقى» مرَّاتٍ عديدة قبل حضورهم إليها، فيجب أن يصبح كلُّ شيءٍ فيها مثيرًا للفضول والبهجة، ومبررًا لصرف المال، أو أن المدينة الهادئة الجميلة تفرض صلاتَها، وهي نوعٌ من صلاة التفاصيل الخاصة من أجل ذاتها المقدسة؛ حيث كانت مدينة

سالزبورج في القرون الوسطى مدينةً دينية، واستمرت كذلك لعصورٍ كثيرةٍ مرت، وكانت تحت إدارة كاردينال الكنيسة مباشرة في العصور الرومانية، ثمَّ ببركة الموسيقار موتزارت أصبحتْ ذاتَ روحٍ أرستقراطية، في جسدٍ دينيٍّ، بأنفاس سيمفونياته الخالدات، في فستانٍ من العمارة الرومانية والباروكية، متشحةً بثوبٍ من الجبال الجيرية الشاهقة. لقد كانت فعلًا «عروس الألب».

سأله سائحٌ بأدبٍ جَمٍّ أن يلتقط له صورةً مع شريكته، فردَّ عليه بالعربية بأن ذلكَ ممكنًا، فاندهش السائح وحملق فيه قائلًا: إذن أنتَ سوداني.

– نعم، وأنت خليجيٌّ، أليس كذلك؟

قال له وهو يمدُّ إليه يده مصافحًا: نعم، سعودي.

وأضاف مبتسمًا وهو يرمي شريكته بنظرةٍ سريعة: ولكنْ سعوديون حداثيون.

فضحكا، وضحكتْ أيضًا شريكته السعودية التي تلبس بنطالًا أنيقًا جدًّا مع بلوزةٍ ورديةٍ زاهية. حذاؤها أنيقٌ رياضيٌّ أبيض تبدو ماركته التجارية ظاهرة للعيان. تضع في وجهها نظارةً شمسيةً من ذلكَ النوع الذي يغطِّي معظم مساحة الوجه العُليا، ويُبرز جمال الأنف إذا كان جميلًا، ويجمِّله إذا لم يكن كذلك. إنها سليلة تلكَ النظارات غالية الثمن التي يتمُّ عرضها في شارع «جترايدقاسا» Getreidegasse بالمدينة القديمة. كانت هي المرة الأولى التي رأى فيها سُعوديةً سافرة، والحق يُقال إنها جميلة مثلها مثل كلِّ بنات حواء، وما كانت في ظنه — وبعضُ الظنِّ إثم — في حاجة لكي تخفي نفسها خلف أحجبةٍ من الأغطية السوداء، وليس هنالكَ فرقٌ بينها وبين أية عربيةٍ سافرةٍ أخرى أو غير عربية. التقط لهما صورًا كثيرةً في أوضاعٍ مُختلفة، ولاحظ أنه على الرغم من أنه قدَّمها باعتبارها زوجةً أو شريكة، إلا أنها ما كانت تلتصق به كثيرًا. كانت دائمًا ما تترك مسافةً بينهما؛ مسافةً أحسَّ درويش بأنها تنبع من عمقٍ سحيقٍ، ينظِّمها بوليسٌ سريٌّ لم تستطع الحداثة أن تسمِّم قلبه الحجري. وعندما أعاد الكاميرا للرجل، سأله السعودي: هل أنتَ في سياحة أم زيارة؟

قال له: أنا أقيم هنا مؤقتًا.

سأله مندهشًا: هنا؟! في هذه البلاد الساحرة! ماذا تعمل؟

حقيقةً، السؤالُ كان مفاجئًا، مثل تلكَ الأسئلة المفاجئة التي صفعه بها الإريتري صلاح سعد مِن قبلُ في أثينا باليونان. قال بعد قليلٍ من التردُّد والتفكير: أعمل مُشرِفًا.

– مُشرفًا على ماذا؟

فكَّر قليلًا ألقى نظرةً سريعةً على رفيقة الرجل السعودي، فلاحظ أنها مُنْتَبِهة، واضعة ابتسامةً ناعمةً بين شفتيها المطليتين بالروج، تنتظر الإجابة كأنما هي التي ألقت السؤال، ثمَّ قال: مشرفًا على حيوانات.

سأله في سرعة: هل أنتَ بيطري؟

قال وهو ينظر للرجل في عينيه كما يفعل هو الآخر: لا، أنا صيدلاني. طبيبٌ صيدلاني.

– ممتاز والله، ممتاز. أنا أعرف كثيرًا من السودانيين؛ يعملون في شركة والدي في الرياض. والدي عنده توكيل شركة فورد الأمريكية. أنا أحبُّهم جدًّا؛ هم أمينون، وطيبون، «بس كسالى كتيير» يعملون بمزاجهم، ويتركون العمل بمزاجهم.

يبدو أن كلمة «كسالى» لم تعجبه، فقال له: «كسالى» أم «مزاجيون»؟

ردَّت زوجته: في الحقيقة، الاثنان معًا؛ فالسودانيُّ قنوعٌ بما يكسب، ولا يفكِّر في المزيد، عكس البشر عمومًا؛ دائمًا طامعون، طامعون في المزيد. وكثيرٌ من الناس يفسِّر ذلكَ كسلًا، ولكن أنا عن نفسي أفسره «قناعة»، والله أعلم.

ضحكوا جميعًا، حتى تلكَ السيدة الرُّوما التي لم تفهم شيئًا من الحوار، ولكن كان الأمر بالنسبة لها مهمًّا ومُدهشًا. وأكثر ما تستغرب له هو تلكَ اللغة التي يتحدثها بطلاقةٍ أشخاصٌ يبدون من الخارج مختلفين تمامًا. نعم جميعهم سود، ولكن أحدهم في سواد لونه أشبه بأفريقي، والآخران آسيويان، ولكنها لاحظت تلكَ الألفة بينهم والحميمة، وكيف يُجرون حوارًا بدأ عرَضيًّا، ولكنه استمر طويلًا، وانتهى بضحكاتٍ عميقاتٍ، وقُبلٍ وابتساماتٍ، ووداعٍ حارٍّ، وتبادُل عناوينَ وتليفونات. وطبعًا

كانت ستضيف أيضًا شيئًا مهمًّا لدهشتها تلك إذا علمت أن السعودي سأل درويش إذا ما كان يحتاج لنقود، ولكن درويشًا رفض تلكَ الفكرة موضحًا «أنها مستورة»، وهو لا يحتاج لأية مساعدة من ذلكَ القبيل، وأنه يعمل ولديه نقودٌ كافيةٌ لكلِّ شيء.

وعندما ذهب السعوديان سألته: هل أنتم هنود؟ أظنني سمعتكم تتحدثون «الأردو». يتحدثها بعض الأصدقاء الهنود في المدينة.

بالتأكيد كانت السيدة محقة، لولا أن الراوي كتب الحوار باللغة العربية الفصحى لحدٍّ كبيرٍ، وبتصرفٍ معقول. وهي ليست فكرتي ككاتبٍ للرواية؛ لأنني أعتبر أن الحوار جزءٌ من بناء الشخصية، وأفضِّل أن أكتب الحوار بلغة الأبطال؛ أيْ شخصيات الرواية، ولكنني في بعض الأوقات أفضِّل أن أترك الحبل في القارب للراوي. أحيانًا بإرادتي، وفي أحايين كثيرة تحت سطوته أو إلحاحه، كما حدث في هذه المرة؛ فمن غرائب الأحوال أن هذا الراوي لا يحبُّ الحوارات. يعني ذلكَ أنه إذا كُتب الحوار بالصورة التي جَرى بها لما استغرب القُرَّاءُ الكرام من سؤال المرأة؛ لأن السعوديَين كانا يتحدثانِ بلكنةٍ بنغاليةٍ واضحةٍ مع درويش، فدرويش لا يتحدث السعودية، والسعوديان لا يتحدثان السُّودانية أو المصرية، وابتدرا الحوار معه باللغة العربية التي يتحدثانها مع خدم منازلهم البنغال في المملكة، وهو استخدم خليطًا من الفُصحى والعاميتين المصرية والسودانية، والقليل الذي يعرفه من العامية السعودية؛ مثل: إيش ووللَّا وحياك الله وأظنُّ ذلكَ كان كلَّ شيء، ولم يتردَّد في استخدامه.

قال لها: لا، تحدثنا اللغة العربية.

– أهاا!!

ثمَّ سألته: من أين أنت؟

قال لها: من السودان ومصر. أنا سودانيٌّ مصريٌّ؛ أمِّي مصريةٌ وأبي سوداني.

– آهاا!!

ثم أضافت: أنتَ أشبه بأفريقي جنوب الصحراء.

قال مبتسمًا: نعم، أنا أفريقي، واللغة العربية لغةٌ آسيويةٌ أفريقية.

قالت ضاحكةً وكأنها تعتذر: آسفة، أنا لا أعرف كثيرًا في اللغات، أنا شبه أُميَّة.

لا يهمُّ كثيرًا ما تبقَّى من حوارٍ بينهما، ولكن الأهمَّ أنها من خلال الحوار القصير عرفتْ أنه يقيم في مدينةٍ صغيرةٍ في محافظة سالزبورج، وهي المدينة نفسها التي تنحدر منها أسرة صديقتها نُورا اشتادكند، لذا رأتْ أو اقترحتْ بأدبٍ أن تعرِّفهما على بعضهما البعض إذا رغبا في ذلك. «نورا إنسانة طيبة، ولكن عليه ألا يسألها عن التفاصيل، فهي لا تحب ذلك. قد تحكي كلَّ شيءٍ، ولكن عندما ترغب في ذلكَ بنفسها. يكفي أن يذكر لها أنه من سالفلدن.» شرحتْ له ذلكَ بصوتٍ هامس، قال لها: إنه يفهم خصوصيات البعض.

وفي نهاية اليوم العملي، قبل لحظاتٍ من انتهاء وقت زيارة كاتدرائية سالزبورج وقبر القديس بطرس؛ حيث يتوقَّف سيل السياح العابرين للجسر الصغير نحو المدينة القديمة، التقط معها صورةً بكاميرته الصغيرة. تحدثا قليلًا عن «سالفلدن». لم تخبره عن أمِّها، ولكنها قالت له إنها وُلِدتْ هنالك، وأن لها ذكريات مؤلمةً بها. سألته: ماذا يعمل هنالك؟ قال لها: أعمل مُشرفًا.

قالت مندهشة: مشرفًا على ماذا؟

قال بصوتٍ خفيض: على بعض الحيوانات.

قالت له وهي تنظر إلى عينيه: لا أفهم! ماذا تعني؟

قال لها وهو يستعدُّ للمغادرة: أنا أعمل مُخَرِّيًا للكلاب.

صاحتْ البنت الأخرى: مُخَرِّيًا للكلاب؟ ماذا تعني «مُخَرٌّ للكلاب»؟ فإن الكلاب تَخْرَى وحدها ولو كانت في سالفلدن أيضًا أو في فيينا.

وضحك ثلاثتهم. لم يضف شيئًا. ودَّعهما ومضى على وعدٍ أن يعود مرةً أخرى ليشرح لهما ما معنى «مُخَرِّي الكلاب».

وهو يعبر ساحة العمدة في المدينة القديمة لاحظ وجود نصب الحفلات الترفيهية المتنقلة، ودَعَتْه الإيقاعات الأفريقية القوية إلى المُضيِّ قدمًا للمشاهدة من قرب. لم يكن هنالكَ مشاهدون كُثر. كانت فرقةٌ أفريقية يرتدي أفرادها ملابس غريبةً أشبه بملبوسات شرق أفريقيا، وكان

المغنِّي شابًّا قصيرًا ذا شعرٍ مضفرٍ وممشوطٍ بأسلوب شعر «بوب مارلي»، وكانت هنالكَ راقصةٌ بارعةٌ ترقص كما لو كانت محاربًا شرسًا يصارع جنيًّا، أو صائدًا ماهرًا يعارك أسدًا هصورًا. كانت ذات طاقةٍ جبارة، ولكنه تعرَّف على الوجه؛ تعرَّف على ناديا منذ النظرة الأولى. كانت قد مرَّت سنتان منذ أن افترقا في «فستبانهوف» بغرب فيينا، ولم يعرف أنها تجيد الرقص بهذه الشاكلة، وكانت أجمل مما تركها. الآن هي أشبه بحوريةٍ أفريقية ساحرة. على الرغم من أن اليوم يمضي سريعًا، إلا أنه انتظرها إلى أن انتهى دورها في الحفل، وصعدت فرقةٌ صينيةٌ بها عشرون عازفةً وعازفًا على آلاتٍ إيقاعيةٍ من خشب الصنوبر. كانوا يتشابهون مثل قطعة نقودٍ من الفئة ذاتها. ولو أنه كان شغوفًا بأن يستمع إليهم، على الأقل للمرة الأولى في حياته يشاهد موسيقيين من الصين، ويشاهد مثل هذه الإيقاعات الغريبة، إلا أنه كان في شوقٍ لمعرفة تفاصيل حياة ناديا، وكيف ومتى انتهى بها التطواف إلى هنا.

من خلفية المسرح المتحرِّك، وجدهم يستعدون للمغادرة. وعندما رأته عرفته، التقيا مثل صديقين قديمين حميمين. كانا يتحدثان بالألمانية، وعرَّفته برجلٍ سبعينيٍّ ذي لحيةٍ صغيرةٍ بيضاء، وجهٍ مستديرٍ وعينين شرستين مثل عينَيْ ضبعٍ جائع. قالت له إنه صديقها «روبرت هانس»، وهو مدير الفرقة. ورحَّب به السيد هانز وقال إنه يعرفه من حكايات ناديا عنه، وهجرتها إلى النمسا عبر شاحنة الخنازير.

– ما كنتُ أعرف أنكِ راقصة.

– لقد حدث ذلكَ بفضل هانس؛ عندما التقينا كان مديرًا لفرقةٍ استعراضيةٍ تراثيةٍ نمساوية، ولكن لظروفٍ ما أفلست الفرقة، وقام بإنشاء فرقةٍ أفريقية، وطرح عليَّ الفكرة وقبلتها، وقام بإدخالي مدرسةً للرقص بفيينا على نفقته الخاصة، وأصبحتُ راقصةً كما ترى. الآن نحن نقوم بالعمل اليوميِّ في كثيرٍ من قاعات الديسكو في فيينا وسالزبورج، ومدنٍ أخرى في النمسا. إنها مهنةٌ متعبةٌ، ولكن هنا كسب العيش ليس بالشيء السهل؛ يحتاج الأمر لمجهودٍ كبير. وعلى هانس أيضًا ديونٌ كبيرةٌ، على خلفية سلفياتٍ من البنوك. ماذا تعمل أنت؟

ابتسم ابتسامةً كبيرة وهو يقول: مُخَرٌّ.

قالت مندهشة: مُخَرٌّ؟!

أضافت: ماذا تعني «مُخَرٌّ»؟

قال لها من بين ضحكةٍ كبيرة: مُخَرٌّ لكلاب امرأة مريضة؛ آخذ الكلاب لكي تتبول، أُفسِّحها حول المكان ثمَّ أعيدها وأطعمها لكي تُكوِّن خِراءً جديدًا في أحشائها، ثمَّ آخذها مرةً أخرى لكي تتخلص منه في أمكنةٍ ما في المدينة وهكذا. لقد قلتِ أنتِ قبل قليلٍ إن الحياة هنا ليست نُزهة، أليس كذلك؟

ضحكا كثيرًا وتبادلا أرقام التليفونات والعناوين قبل أن تلحق بفريقها في أحد فنادق المدينة، قالت له: أحِسُّ بأنني منتهكة، أو قل إنني مستهلكة؛ مستهلكةٌ لأبعد الحدود. أريد أن أرتاح قليلًا، ولكن ذلكَ لا أظنه سيحدث قريبًا، أو أنني أشك في أنه سيحدث في يومٍ من الأيام، ولكن على كلٍّ، ذلكَ خيرٌ من الموت.

لم يلتقيا مرةً أخرى، ولكن بين حينٍ وآخرَ كانا يتصلان ببعضهما البعض عندما تكون هنالكَ أحداثٌ كبيرةٌ في حياة أحدهما. اتصل بها عندما أنجبتْ له نُورا ميمي، واتصلت به هي عندما قرَّرتْ أن تترك هانس، الذي لا يرغب في إنجاب الأطفال في هذا العمر، ومُحاجَّتُه أنه لا يدري ماذا يفعل بالأطفال وهو لا يدري كم من السنوات سيبقى لأجلهم. وهي تريد طفلًا، وتخشى أن تعبر الثلاثين بدونه، ثمَّ يصبح من ضمن الأحلام المستحيلة، ولكنهما ما زالا يعملان معًا، في علاقة عملٍ ليس إلا. وقالت إنها تبحث عن شريكٍ يريد أطفالًا، ولديه مصدر رزقٍ غير الفن، وليس من المهاجرين، وليس رجلًا فقيرًا؛ فهي جميلةٌ وتستحقُّ رجلًا ثريًّا، يفضَّل أن يكون وسيمًا، ويفضَّل غيره أيضًا. يتبادلان الأخبار في دقائق قليلات، ثمَّ يغيبان عن بعضهما البعض لسنوات، ولكن كانت تلكَ آخر مكالمةٍ بينهما؛ عشرة أعوام من الآن.

قد يتوقَّع القارئ الكريم أو القارئة الكريمة أن الرواية منذ هذه اللحظة سوف تمضي في واحدٍ من ثلاثة محاور: إما يكمل الراوي قصة زواج الأمِّ من درويش، وبذلك يتمُّ تشكيل الصورة السردية لنورا شُولز؛

حتى يستقيم الوضع الفنيُّ لها كزوجةٍ ثمَّ كأم، أو أن تمضي الرواية في خطٍّ آخر، وهو يمكن التنبُّؤ به أيضًا مِن قِبَل القارئ أو القارئة. والمقصود هنا الحوادث التي تدور في هذه اللحظة في بيته، أي في غرفة ابنته؛ لأن الكثيرين يهمُّهم أن يتعرفوا على سير العلاقة المُربكة بينه وبين ابنته من ناحية، وبينه وبين حبيبها توني من ناحية أخرى. أما المحور الثالث فهو ما يمكن أن نُطلق عليه التناقضات العميقة في حياة درويش عبر سيرته الذاتية المحكيَّة في صورة «فلاش باك»، لكن — للأسف — حدث ما يصعب تفسيره للقُرَّاء والقارئات الكريمات. في الحقِّ، إنني محرجٌ من تناوُله. إن الراوي شاء أن يهتم بحدثٍ تافهٍ عابرٍ وقع بينما كان درويش في طريق عودته إلى سالفلدن بقطار الرابعة والدقيقة الثامنة بعد الظهر.

ومن جانبي، رفضتُ تضمينه في الرواية؛ لأن ذلكَ سيقودنا لمحورٍ آخرَ غير مخططٍ له، وغير مُتَّفَقٍ عليه من قَبلُ، كما أنَّ ذلكَ سيورِّط النصَّ الأدبيَّ فيما يسمِّيه بعض النُّقاد الكلاسيكيين الحَرفِيينَ: «الخروج المريع وغير المبرَّر فنيًّا عن الخطِّ العامِّ للتحقُّق السردي.» في السودان يندفع الكثيرون من المتمرِّنين في النقد بتقديم بعض النصائح للكاتب في ذلكَ الظرف بالذات، وأنا لا أريد أن أدخل في أية مشادَّات أدبية؛ بالتالي — للأسف — إنني خسرتُ الراوي. خسرتُه تمامًا، على الأقل خسرته الآن؛ لأننا لم نصل إلى رؤيةٍ مشتركةٍ أو لحلٍّ وسط. وهذه الحادثة حصلت لي مِن قبلُ في روايتي الموسومة بـ «الخندريس» — على ما أذكر — إذا لم تخُنِّي الذاكرة؛ عندما رغب الراوي في تحويل الرواية لمغامرةٍ بوليسية، ولم يعجبني ذلك، وقمتُ حينها بتولِّي قيادة السرد باسمي الشخصي في فصل بأكمله. كان الأمرُ مخجلًا بالنسبة لي ومرهقًا؛ أن أكون مُؤلِّفًا وراويًا. لكن الأمر مرَّ بسلام، وأعدتُ الأمور إلى نصابها، ومن ثمَّ سلَّمت الخيط السردي للراوي، مثلما يحدث في مباريات كرة القدم عندما يتبادل لاعبان موقعيهما؛ يدخل الأول الميدان ويخرج منه الآخر وبينهما ابتسامة وضربة كفين مرحتين، أو مثل أية مسألة تسليمٍ وتسلُّمٍ سلمية. سأستعين هذه المرة بدرويش نفسه ليسرد بعضًا من النص، ودرويش رجلٌ مرتبكٌ ومحبطٌ ويسهل قياده، إلا أنني غيرُ شديد الاطمئنان لجانبه؛ فالمهاجرون — كلُّ

المهاجرين — يحتاجون لتأهيلٍ نفسيٍّ قبل أن يُوثق في أفعالهم، فالهجرةُ تُحاكي فعل النمل الأبيض في حشو الخشب الرطب؛ يأكل قلبَ المُهاجرِ ليلًا ويبسقه في النهار، ولكن — كما قال الشاعرُ العراقيُّ «سَعدي يُوسف»: «أي تِيجانٍ سنخسر؟»

«ما كنتُ أظنها ستستجيب لطلب أمِّها بهذه السُّرعة.» بدأ درويش سرد الحكاية من هذه النقطة بتلك الجملة الرشيقة — ولو أنه بدأ بالحرف «ما» الذي يعمل هنا أداة نفيٍ تدخل على الفعل الماضي فتقلبه رأسًا على عقب، ممَّا يربك القارئ المستقر؛ لأنه يضعه مباشرة في قلب الحدث مختصرًا تفاصيل أزمنةٍ وأمكنةٍ كثيرة — بدأ من اليوم الذي شارفت فيه لُوديا على الوداع؛ أي اليوم الذي تراجعت فيه عن قرار أنها لا تريد أن ترى ابنتها، وأن على درويش أن يخبرها بعد رحيلها. ولكنها فجأةً طلبت من درويش أن يذهب ويبحث عن بنتها في سالزبورج؛ فهي تريد أن تراها قبل أن تموت. إذن بدأ درويش السرد، بعدما حدَّث نُورا عن حقيقة أنه يعمل مع أمِّها في البيت في رعاية الكلاب ومساعدتها على الحياة، وأن أمَّها في لحظاتها الأخيرة وهي تريد أن تراها؛ وبذلك أيضًا اختصر تفاصيل وقوع المفاجأة عليها ورَدِّ فعلها، وكيف ومتى ذهب إلى آخر التفاصيل السردية التي يسخر منها الروائي النمساوي «توماس بينرهارت» ويعتبرها حشوًا سرديًّا ابتكره الروس ولا داعي له.

«ما كنتُ أظنها ستستجيب لطلب أمِّها بهذه السرعة. استقللنا الباص السريع على الرغم من خطورته بالنسبة لي؛ لأن الباص يمرُّ بالطريق المختصرة التي تعبر جزءًا من دولة ألمانيا، وأنا ليس لديَّ إقامة بها، وقد يأتي البوليس في أية مرحلة من الرحلة ويوقف الباص ويسأل عن الأوراق والوثائق، وحينها قد يتم سجني ما لا يقلُّ عن ثلاثة أشهر؛ ومن ثمَّ أرحَّل بواسطة البوليس الدولي إلى فيينا لأنني أخالف قانون الهجرة وأستغلُّه استغلالًا سيئًا، ولكن الأمر كان يستحقُّ المغامرة؛ لقد قدَّمت لي الأمُّ لُوديا الكثير: أحبَّتني كابنٍ، وأحببتها كأمٍّ حقيقة، ولم أشعر أبدًا بأنني أعمل عندها أو أنني شخصٌ آخر؛ لاجئٌ يبحث عن موطئ قدمٍ له في أية بقعةٍ كما اتفق. أستطيع أن أقول إنني بدأتُ أحِسُّ بالانتماء للمكان

وللناس، وقد أبالغ إذا قلتُ إنني أحسستُ بها كأنها فردٌ من أسرتي؛ إذا لم تكن أمِّي ذاتها. كانت ابنتها نُورا قلقة، وكانت تعرق طوال الطريق، ولم نتبادل سوى كلماتٍ قليلات، ولكنني أرى الكلمات تتلاطم في رأسها. كانت حزينةً بصورةٍ لا يمكن أن يُخطئَها ذو عين. سألتني عدة مرات: هل سأجدها حية؟

ولأنني ما كنتُ أمتلك الإجابة الصحيحة، فكنتُ أؤكد لها فقط بأنني قد تركتُها حية، وأظنُّ أن الموت سيخطئها هذه المرة أيضًا؛ لأنها تجاوزت الفترة التي حدَّدها الطبيب بشهرين كاملين. ولكي أدخل السرور في نفسها، وأخرجها قليلًا من بئر الحَزَن العميقة التي تغرق فيها في تلكَ اللحظة، قلتُ لها: أمُّك مثل الثعلب العجوز؛ لا يقع في شَرَك الصياد بتلك السهولة.

ويا ليتني لم أقل هذه الجملة؛ فإنها انفجرت بالبكاء، البكاءُ الذي أشبه بالمناحة، أشبه بالصراخ المخبول حول جنازةٍ عظيمة. كانت تبكي بحرقةٍ ومرارة؛ مما جعل جميع الركاب الذين بالباص ينتبهون ويسألون إذا ما كانت هنالكَ مشكلة: «هل يتوجَّه الباص للمستشفى؟ هل يطلب السائق الإسعاف؟ هل تعرف تلكَ السيدة؟ أين تذهبان؟» ولكن الله ألهمني بإجابةٍ معقولةٍ تركتهم يلزمون حدودهم بأدب، وإلا استلمني البوليس الألماني، وهو لا يقنع بأقل من استخدام كامل الصلاحيات القانونية المخولة له.

«صديقتي حزينةٌ بعض الشيء؛ أمُّها مريضة.»

عندما وصلنا البيت كانت في حالة انهيارٍ تامٍّ، مثل دُميةٍ مصنوعةٍ من خرقةٍ قديمةٍ مبتلةٍ بالماء، وتسير مسندةً جسدها في كتفي كأنها بلا عظامٍ في هيكلها. لولا أن الشقة في الطابق الأرضي، لما أظنُّها تستطيع الصعود. استقبلتْني الكلاب بنُباحٍ عذبٍ ومرحٍ وهي «تتشعلق» على ملابسي وتلحس كفي.

كانت أمُّها في حالةٍ طيبة، تجلس على الكُرسيِّ المُتحرك، تنظر نحونا غير مصدقةٍ عينيها الواسعتين الدامعتين. لم تقل كلمةً واحدة؛ فقط فتحت ذراعيها لحضن ابنتها. وعند هذا الحد تركتُهما وأخذتُ الكلبين وخرجتُ. اللحظات الإنسانية العظيمة العميقة لا يفسدها سوى الشهود، ولا أريد أن أكون ذلكَ المُفسد.»

أظنُّ أن درويشًا استطاع أن ينقل لنا المشهد السابق بصورةٍ طيبة، ولو أنه لم يتحدَّث عن نفسه كثيرًا كما هي عادة الأبطال الذين يُعطَوْن فرصةً في التحدث عن أنفسهم بضمير المتكلم، الذي أسميه «ضمير المثرثر». وهي واحدة من طبائع درويش: «الاختصار والحذر»، وكتم مشاعره الحقيقية، أو عدم التحدُّث بها والإفصاح عمَّا يعتوره من حبٍّ أو كراهية.

ماتتِ الأمُّ في المستشفى بعد يومين من حضور البنت، وكان كلُّ شيءٍ معدًّا ومرتبًا بدقَّة. المقصود هنا مراسيم الجنازة، والحرق وصيتها الأخيرة. أعدَّته المرحومةُ نفسُها لأنها تخاف من الموت؛ لذا كانت مستعدةً لمواجهته. كلُّ شيءٍ رتَّبتْه بالصورة الكاملة. كانت وصيتها أن يُحرق جثمانها بعد موتها، مع تبرُّعها بكلِّ ما يصلح للتبرُّع من جسدها ويوجد مَن يحتاج إليه، ثمَّ يُنثر رمادُ ما تبقَّى منها في جبال الألب، حول المكان الذي سقطتْ فيه، أو يُدفن تحت الصخرة؛ حيث أصابتها جرثومة الموت التي ظلتْ كامنةً في عظمها لسنواتٍ طوال. كانت تقول لي دائمًا: «لكلِّ شخصٍ جرثومة موت، يلتقطها الإنسان من مكانٍ ما في وقتٍ ما من حياته، وأحيانًا يُولد بها من بطن أمِّه.» وهي فكرة أقرب للقدر أو ما نسميه: «المكتوب». كانت نُورا شُولز حزينةً بصورةٍ عميقةٍ جدًّا، وكانت مرتبكةً منذ اللحظة التي قابلتْ فيها أمَّها. لم أرَهما تعتذران لبعضهما البعض. كانتا تتبادلان كلماتٍ قليلةً، ولكن عيونهما تقول الكثير. أطعمتْ أمَّها بيدها. سقتْها الدواء. سهرتْ عليها. بقيتْ لجانبها إلى أن رحلتْ. قالتْ لي ذات مرة: كان عليَّ أن أسامحها، ولكن كنتُ أنتظرها أن تبدأ بالاعتذار، ولكنها لم تفعل، لكن أحسستُ به في عينيها، وخلف كلِّ الكلمات القليلة التي تبادلناها في الساعات القليلات التي قضيناها معا. تركتُها وعمري سبعة عشر عامًا، ولكنني لم أشعر أن زمنًا طويلًا قد مضى. كأننا لم نفترق، وكأنما لم يحدث شيءٌ في الأصل. لا أعرف لماذا؟ إن ذاكرة الإنسان قابلةٌ لنسيان الأحداث السيئة، والاحتفاظ باللحظات الجميلة ولو كانت نادرة.

كانت واقعيةً جدًّا، وصريحةً بصورةٍ لم أشهدها من قبل، واستطعنا أن نتفق في لحظاتٍ قلائل، وهو — للأسف — اتفاقٌ غير عاطفيٍّ، بل اتفاقٌ تقوده المصلحة المشتركة؛ أقصد المصالح الدنيوية البحتة. كانت أُمُّها قد تركتْ لي الشقة بما حوتْ، والكلبين، وعربتها غير المستخدمة، وكثيرًا من المال في وصيتها، وتركتْ لبنتها مبلغًا محددًا من المال. لا أدري لماذا فعلت ذلك، ولكن ربما أحسَّت أنها ستنفق كلَّ شيءٍ على الخمور والمخدرات ونظام الحياة غير المسئول الذي تمارسه ابنتها، أو لأسبابٍ لا أعلمها. قالت لي نُورا بعد أن شرح لنا محامي أمِّها كلَّ شيء: أمِّي لا تفعل شيئًا بدون هدف. دَع المحامي يذهب أولًا.

مثل تاجرين متجولين جشعين، جلسنا وجهًا لوجه. شرحتْ لي أن وضعي القانوني في النمسا — حسبما عرفتْ مني بالتفاصيل من قبل — يقضي بأنهم سوف يرحلونني إلى مصر أو السودان، ولو استأنفت مائة مرة! كما أن للاستئناف حدودًا؛ لأنني صُنِّفت ضمن الهجرة الاقتصادية، بمعنى أني لا أبحث عن حماية، بل جئتُ أبحث عن عمل، وهذا ليس سببًا كافيًا لكي يعطوني لجوءًا سياسيًّا هنا أو إقامةً دائمةً، وإلا فُتح الباب واسعًا لكل من هبَّ ودبَّ؛ فمَن مِن الناس لا يرغب في وضعٍ معيشيٍّ جيدٍ، وضمانٍ اجتماعيٍّ، وتأمينٍ صحيٍّ، وكلِّ مميزات إنجازات الحضارة الأوروبية؟ (قالت الجملة الأخيرة كما لو نطقتها وزيرة الشئون الاجتماعية الأسترالية بعد عشرين عامًا من ذلكَ التاريخ.) والطريق الوحيد للحصول على الإقامة هُنا، هو الزواج من نمساوية. «وهذه النمساوية هي «أنا» بالذات! (كانت تعابير وجهها جادَّة جدًّا وهي تقول ذلك.) لأنني أرغب في بيتٍ وأسرةٍ وعربة، واكتفيتُ من حياة التشرد، وأظنُّ أنها فكرة أمي المُضمرة في تقسيم ما تملك بتلك الطريقة المخزية. إنها تريدنا أن نتزوج؛ لأنها إذا تركتْ لي الشقة والعربة والمال، تعرف أنني قد تكون لي خياراتٌ لا تعجبها؛ فقلب الأمِّ دليلها. تريدني أن أكون كما تريد هي، ولو لمرةٍ واحدةٍ في حياتها، وأنا عن نفسي أريد أن أحقِّق لروحها تلكَ الرغبة؛ فهل تقبل بهذا العرض؛ أن نحقِّق رغبة امرأةٍ تحبُّنا نحن الاثنين؟ ربما نحبُّ بعضنا البعض في المستقبل؛ فالمعايشة أيضًا تقود للحب.»

كانت المفاجأة بالنسبة لي صادمة. أنا لم أفكر أبدًا في الزواج. ليس من أجل الإقامة، وليس من أجل الأسرة أو علاقات الفراش. إن الأمر لم يشغل بالي كثيرًا؛ أي ليس أساسيًّا، كما أن لي حبيبةً في مصر، وهي تنتظرني أن أعود أو آخذها معي. وبدا الأمر معقدًا جدًّا عندي؛ فلذتُ بالصمت، ولكنها لاحقتني بأن عليَّ أن أقرر لأنها لديها بدائل أخرى، ولأن الأمر لا يتحمل، على الأقل من الناحية النفسية بالنسبة لها، وهي فكرتْ كثيرًا جدًّا في هذا الموضوع. نعم، تعتذر لأنها سوف لا تعطيني الفرصة الكافية للتفكير، ولكن ذلكَ لا يمنع من أن تجدَ إجابةً سريعة، وقالتْ لي صراحةً (سأختصر ما قالته لي كثيرًا، أو في الحقيقة سأكتب ملخَّصَ مَا فهِمتُه مما قالت): «أنا كرهتُ حياة التشرد. كرهتُ أن أكون دائمًا الجانب الضعيف، اليد السفلى الممدودة، الجانب المحتاج. كرهتُ ملء الاستمارات الطويلة لطلب المساعدة من الحكومة والمنظمات الإنسانية. كرهتُ الذهاب إلى الأبواب الخلفية للسوبر ماركت لأخذ الأطعمة منتهية الصلاحية التي يرمونها في المزبلة يوميًّا. كرهتُ شُرب الخمر الرخيص، وأكل الطعام الرخيص، وشرب القهوة التالفة. كرهتُ أيضًا الرجال الملاقيط العابرين؛ فالحياةُ إما أن تكون كاملةً أو لا تكون. أنا لا أتعاطى تلكَ المخدرات الخطرة. أتناول أحيانًا بعض الحشيش؛ فليست لديَّ نقودٌ لشيءٍ آخر، واللوحات الرخيصة التي أبيعها لا توفِّر سوى بعض الطعام لي ولصديقتي وبعض الأصحاب الآخرين المقيمين معنا في البيت المهجور، الذي يسمونه «بيت الشيطان جاكوب». إننا نعيش فيما يشبه كميونةً شيوعيةً صغيرة، ولكني كرهتُها، كرهتُهم، كرهتُ كلَّ ما له صلةٌ بهم؛ أريد أن أعيش كإنسانة. هل ذلكَ ممكنٌ معك؟ هل تتزوجني؟»

كانت تتحدث بطريقةٍ لم تجعل أمامي سوى خيارٍ واحد فقط؛ فقلتُ لها بدون أيِّ تفكير: «سنتزوج.»

ما حدث بعد ذلكَ لم يكن غريبًا جدًّا. فلنقل إنه ليس مُعتادًا. ذهبنا في اليوم التالي إلى مكتب المحلية وأعلنا الزواج. وبعد الفترة القانونية للإعلان لم يعترض أحدٌ من المواطنين، فتزوجنا بدون أية احتفالات. كان زواجًا رسميًّا. بقينا في الشقة معًا لمدة ثلاثة أشهر، لم يقترب أحدُنا من الآخر؛

عشنا كغريبين يستأجران شقةً واحدة. ربما كنا مصدومين، أو أننا لم نعِ فداحة الخطأ الذي وقع فيه كلانا. وكنا نتحدث مع بعضنا البعض في كثيرٍ من الموضوعات، ونتمشى مع الكلاب، ونتبادل بعض النكات والذكريات. زرنا مدينة سالزبورج عدة مرات. ذهبنا للسينما والمسرح وكلِّ معارض الفنون التشكيلية بسالزبورج. ولو أنها لم تنلْ حظًّا وافرًا من الدراسة الأكاديمية إلا أنها كثيرة الاطلاع في كثيرٍ من المجالات؛ فعندما نقلنا كتبها من وكرٍ مهجورٍ في المدينة، كنتُ لا أصدِّق نفسي بأنه يُوجد شخصٌ في هذه الدنيا مشردٌ ولديه كل تلكَ الكتب. كانت حجرتها عبارةً عن مخزنٍ للكتب، عكسي تمامًا؛ فأنا لم أسمع بكُتَّابٍ مشاهير وعظام مثل: «كافكا»، و«غونترغراس»، و«أمبيرتو إيكو»، و«أوارهان باموك» وغيرهم إلا عندها، بل لم أشاهد لوحات «فان جوخ» ولم أستمع لموسيقى كلاسيكية إلا معها. ولا أبالغ إذا قلتُ إنها هي التي قرأت لي «ألف ليلة وليلة» بالألمانية، وكتاب «النبي» لجبران خليل جبران. كنتُ أعرف أن هنالكَ كتابًا تراثيًّا اسمه «ألف ليلة وليلة» وقرأنا بعض قصصه في مقرَّر المدارس الابتدائية والثانوية، ولكنني لم أطَّلع عليه كاملًا إلا بصوتها. فلا أدري مدى فداحة خسارتي في الحياة إذا لم أحفظ عن ظهر قلب قصيدة «الأرض الخراب» لتي إس إليوت T. S. Eliot أحيانًا كنتُ أظنُّ أن القدر جمعني بنورا من أجل «تي إس إليوت». لقد كنتُ في عالمٍ آخرَ تمامًا. كنتُ لم أقرأ في حياتي سوى كتب الصيدلة وبعض آياتٍ من الشريف. أحيانًا الصفحات السياسية في الجرائد اليومية، وكتاب لأنيس منصور اسمه «الذين هبطوا من السماء»، وآخر لمصطفى محمود موسوم بـ «حوار مع صديقي المُلحد». ما زلتُ أذكر هذين الكتابين وأشعر بالخجل من نفسي؛ لأنني كنتُ أظنُّ أن كتاب «مصطفى محمود» كتابٌ قيِّم. لقد بذرتْ فِيَّ جرثومة القراءة، وفتحت عيني لعالمٍ كنتُ في غيبٍ عنه.

ربما ضحالة ثقافتي كانت السبب الأول الذي سهَّل انضمامي للجماعات الإسلامية المتطرفة في أوائل أيامي بجامعة أسيوط بصعيد مصر، وهي المجموعات المتطرفة ذاتها التي اغتالت الرئيس المصري «أنور السادات» فيما بعد، فما كانت عندي الأدوات التي تجعلني أفرِّق بين

الأفكار المفخخة ذات الوعي الزائف والأفكار الأصيلة. بالتالي؛ كلُّ ما قاله لي ذلكَ الرجل المُلتحي الذي جنَّدني عقب صلاة الصُّبح في صفوف الجماعات، كنتُ أراه عين العقل، وكامل المنطق، وروح الدين الإسلامي ولُبَّه، وإذا لم أتبعْه فسأكون من الكافرين. لولا أن أنجدني رجالُ الأمن لضللتُ ضلالًا لا فكاك منه. وذلكَ لسخرية الأقدار!

(وهذا أيضًا يفسِّر ردَّ فعل درويش العنيف تجاه المعلم الذي شرَح لابنته في المدرسة في حصة الدين الإسلامي الخاصة آية: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾. ومنعها درويش بعد تلكَ الحادثة من حضور حصة أيِّ دينٍ كان. نروي ذلكَ في صفحات قادمات.)

تزوجنا في مكتب حكومي. كررنا ما لقَّننا إياه الموظف. ولدهشته لم نُقَبِّلْ بعضنا البعض تلكَ القُبلة الشهيرة التي طالما تُفْتَتَح بها الحياة الزوجية هنا في أوروبا. أما في بلادنا، فقد تقود إلى إلغاء عقد الزواج، إذا لم ينتهِ الحفل بكارثة لا تُحمد عقباها. كنا في الواقع نقوم بعمل شراكةٍ ذكيةٍ بين متشردةٍ جميلةٍ لديها جنسية نمساوية، وبين لاجئٍ لديه بيتٌ وعربة، وهو أيضًا صالح للزواج. واليوم الذي نِمْنَا فيه في سريرٍ واحد هو اليوم الوحيد الذي حدث بدون أية ترتيبات؛ بدون رسميات أو تخطيط، بل حدث بالصدفة البحتة؛ فبينما كانت تقرأ لي قصص «ألف ليلة وليلة» بالألمانية، وتعمل في بعض الأحيان على شرحها بالإنجليزية — التي لم أكُن أجيدها أيضًا، ولكنها أسهل بالنسبة لي من الألمانية — عندما قرأت الفقرة الأخيرة من الكتاب:

> أمتعتْ شهرزاد الملك بهذه القصص ليالي كثيرة، وأنجبتْ منه ثلاثة أطفال طوال حياتهما معًا، ويُقال إن الملك أحبَّها، وإنها سامحته. وعاد الملك إلى صوابه، وتدارك الأمور بإعتاقه لها وتتويجها ملكةً له. تعلَّق الملك بزوجته وبالقصص التي كانت ترويها له، وعاشا معًا في سعادة غامرة.

كان قد بلغ بها النُّعاس أشده. سقط الكتاب من يديها على الأرض أو أسقطته هي على الأرض، في الحقيقة، لم يسقط على الأرض مُباشرة،

بل سقط على حافة السرير، ثمَّ تدحرج ليسقط على الأرض، وللدقة، لم يصل الكتاب الأرض؛ فقد استطعتُ أن أدركه وهو يرتطم برجلي المدلاة من السرير. في ذلكَ الوقت كنتُ قد توقفتُ عن شرب الكحول — حتى البيرة أيضًا — مراعاةً لظروف لُوديا؛ لأنني في بعض الأحيان عندما أُكثِر من الشراب أصبح شخصًا غير محتمل، وأبدأ في تذكر كل أحزان الدنيا، وقد أفتعلُ الشجار ولو مع كلب، ولكن نُورا كانت قد احتستْ بعض النبيذ الأبيض، وعلى ما أظن، تعاطتْ شيئًا خفيفًا جدًّا من الدخان الأزرق، تثاءبتْ، ظلتْ جالسةً على الكُرسيِّ قُربي، وكانت سكرانةً أو مسطولةً أو الاثنتين معًا، وهذا نادرٌ حسب نظرية الفتاة الرواندية صديقة السفر التي قالت لي: «لا يمكن أن يُصاب الشخص بالسُّكر والسَّطل في آنٍ واحدٍ، ولو تناول المُسْكر والمُسطل بذات القدر؛ دائمًا الصهباء هي سيدة الموقف، والله أعلم.» وهي دائمًا ما تضيف هذه الجملة التي توضِّح قوَّة إيمانها.

كسلتُ عن أن أساعدها في الذهاب إلى حُجرتها كما أفعل يوميًّا بعد قراءة شيء من كتاب ألف ليلة وليلة، أو نَبِيِّ جُبران خليل جُبران. طلبتُ منها أن تقضي الليلة هُنا. لا أظنُّ أن هنالكَ مشكلةً؛ فالسرير كبيرٌ جدًّا ويتحمَّل شخصًا ثالثًا أيضًا. قالت لي بلسانٍ ثقيل: «لقد انتهينا من حكايات شهرزاد، وأنا لديَّ حكايةٌ، إذا لم تحكِها لكَ أمي، فسأحكيها لكَ أنا بالتفاصيل. لا بأس، حتى إذا قصَّتها لكَ أمي، فسأقُصُّها أنا أيضًا عليك. لديَّ رغبة أن أحكيها لك. هل تسمعني؟ إنها حكاية مُرعبة فعلًا! حكاية أبٍ يغتصب ابنته، وعندما عرفتِ الأمُّ لم تقل شيئًا. حدثت هذه الحكاية لبنتٍ تعرفها أمي وأعرفها أنا جيِّدًا؛ كانت تُقيم معنا. مُنذ أن وُلِدتُ وجدتُها في البيت.» وبدأنا بتلك الحكاية المُرعبة ليلتَنا الأولى ممَّا لا أدري من الليالي.

حوارٌ من أجل البنت

ربما لم يخطر بباله ولو في أحلامه وكوابيسه الكثيرة المزعجة، أو في خواطره المريضة المشوهة نتيجةً للتناقضات الكبيرة التي يعيشها في حياته اليومية منذ أن وطئت قدماه أرض المهجر، ولم يفكر أيضًا في وعيه مرةً أن يحدث له ذلك، ولا يدري لماذا دائمًا يُواجه هو بالذات بتلك الأسئلة الصعبة جدًّا، ويُوضع في المواقف المُعقدة! دخل مشهد الرعب مباشرة بعد نداء ابنته صائحةً من غرفة المعيشة: أبي، أبي، تعالَ سريعًا.

نهض مهرولًا، بل انطلق مثل السهم. ماذا فعل الرجل بابنته؟ وجدها ترتجف. قُربها يقف توني مُمْسكًا بيدها، وفي فمه ابتسامةٌ مربكةٌ عريضةٌ بلهاء.

قالتْ لوالدها مباشرة — ولم تهتم بوجود والدتها كثيرًا، ولو أن والدتها تكاد أن تكون ملتصقة بها: توني أسلم يا أبي!

كاد الأب أن يسقط من الدهشة. ربما ليس هذا سوى بعض من كوابيس تلكَ الكاسات الصافيات من عرق شجرة الهولوندا الذي احتساه. ربما ذلكَ مواصلة لحلم اليقظة الذي يجد نفسه فيه كلما حلَّت به مشكلة واستعصى عليه حلها.

– نعم؟

قالتْ وهي تمسك توني من يده بـ «حنية» بالغة: توني أسلم يا بوي.

قال وهو يجلس على أقرب كرسي بينما يمسك بيد نُورا لكي تساعده في الجلوس؛ قال لها من بين أسنانه: يعني أسلم كيف؟ ما فاهم!

قالتْ وقد عِيلَ صبرُها: يعني دخل الإسلام؛ أصبح مؤمنًا بالله ورسوله.

صمت قليلًا، وأخذ يفكر بعمق. في الحقيقة، ما كان يدري ما هو شعوره، ماذا عليه أن يرد؟ هل يفرح أم يحزن؟ لا يدري. هل كان الموضوع مجرَّد أحلامٍ وتهيُّؤات؟ لا يدري. نظر لتوني الذي كان ينتظر منه كلمةً ما وفي فمه ابتسامةٌ كبيرةٌ تتسع كلما توقَّع ردَّ فعل درويش المُبارِك، ولكنَّ درويشًا سأله: لماذا أسلمتَ يا بني؟ ماذا تعرف عن الإسلام؟ أين قرأته؟

قال وهو ينظر إلى ميمي وكأنه يريدها أن تنقذه من أسئلة والده: واحدٌ من الأسباب: لأن ميمي مسلمة، وأريد أن أكون مثلها؛ فلقد شاهدنا بعض الفيديوهات واليوتيوبات، والأمر أعجبني. هل هنالكَ مشكلة؟

– لا لا توجد مشكلة.

كانت تعتوره أحاسيس متناقضة؛ من جانبٍ كان فرحًا بفكرة أن يُسلم توني. في الحقيقة، ليس لأن الإسلام كسب شخصًا ما، أو أن شخصًا ما قد اهتدى إلى سبل الخير والصلاح، وأصبح مؤمنًا بالله ورسوله، وسيُكوِّن أسرة مسلمة، ولكنه كان أكثر سعادة لأنه هو الذي سيوضِّح له ما هو الإسلام بالطريقة التي يعرفها. ولا ينسى بعد الشهادتين أن يخبره بأن عليه ألا يختلي بابنته مرةً أخرى: إما أن يتزوجا مباشرةً، وإما أن يصبر عليها إلى أن يحدث ذلك؛ لأن الخلوة حرام في الدين الإسلامي مثلها مثل شُرب الخمر؛ أي واحدة من الكبائر. نعم سيشرح له الكبائر في الإسلام، والزنا واحدة منها. وعليه أن يتزوج البنت أولًا؛ ليكوِّن أسرةً مسلمة. أما بقية الأشياء فهي سهلة، والشيء الآخر: نعم لقد أسلم الرجل الآن، ولكن ماذا ينوي أن يفعل بإسلامه؟ فعلًا، ماذا ينوي أن يفعل به؟ وأيضًا لم تُرِحه فكرة أنه أسلم لأن ابنته مسلمة، وهو يعرف أن ابنته لا تعرف إلا القليل عن الإسلام، وسلوكها كله أقرب لسلوك أية سيدة نمساوية بغض النظر عن دينها؛ فهي تربية المجتمع الذي وُلدت فيه ودرست في رياضه ومدارسه، والأهم أنها تخرجت في مدرسة أمها نُورا، وحتى والدها — بعد تدجينه بواسطة القانون — ما عاد ذلكَ الشخص الآتي من مكانٍ آخِر. لم يتبقَّ منه في الظاهر سوى لون بشرته السوداء وشعره الخشن، ولم تظهر شخصيته الإسلامية العربية الأخرى، إلا حينما

أصبح عليه أن يدفع الثمن من جزءٍ من لحمه ودمه. والمقصود هنا ابنته؛ فكلُّ ما هو بعيدٌ عن الشرف يمكن التعايش معه. وكلمة «الشرف» هذه بكل حمولاتها المحلية والعقدية لم يستطع أن يتخلص منها طوال رحلته في المهجر. وهذا الأخير أيضًا يمكن قبوله مع الكبت، تحت سطوة القانون وسلطة الأسرة التي هي تحت قيادة نُورا شُولز، كما هو عليه الحال الآن. أما إذا تُرك على سجيته؛ فليس أمامه سوى أن يكون درويشًا الذي كان يعرفه قبل عشرين عامًا، ولكن ما فائدةُ الحُريةِ التي ثَمنُها هو: فقدُها؟ وربما إذا لم يحرم ابنته من حصص التربية الإسلامية لكانت سيدةً مختلفة سلبًا أو إيجابًا، ولكنها ستكون سيدةً غير ما هي عليه الآن بكل تأكيد؛ فهي مسلمةٌ وفقًا لشهادة ميلادها فقط لا أكثر. ميمي لا تصلي ولا تصوم ولا تقرأ القرآن، بل ولا تحفظ آية واحدة منه أو حديثًا نبويًّا. الذي حفظته في طفولتها المُبكرة من الأستاذ الآسيوي قد نسيته بعد ثورة والدها الظافرة. يَحمد لابنته أنها غير متناقضة؛ شخصية واحدة لا غير، ولا يظن أن موضوع كونها مسلمة وقبولها لذلك قد أثر أو يؤثر على شخصيتها الأوروبية. وهنا يقول لنفسه: الفضل يرجع لي أنا درويش؛ الشخص الذي انتبه لشرور مُعَلِّم الدين مبكرًا. فهي مُسلمةٌ في شهادة الميلاد، وأوروبيةٌ في كلِّ تفاصيل حياتها.

سأل توني سؤالًا مفاجئًا: ومن قال لك إن ميمي مُسلمة؟

قال له توني بهدوء: أريد أن أقول لك إن المسألة سهلة جدًّا. أنا أريد شيئًا جديدًا في حياتي؛ شيئًا غير تقليدي. مللتُ أن أكون أنا كلَّ مرةٍ نفس الشخص ذاته. الحياة هنا مملة، وهذا هو الذي أيضًا جعلني أحبُّ ميمي أكثر، فهي مختلفة — على الأقل في شكلها. أنا وميمي نريد أن نصبح مسلمين.

قال وقد بدأ يفهم: الآن عرفت كل شيء. إذن هي فكرتكما معًا. وماذا تريدان منا أن نفعل لكما؟

قالت ميمي: كنتُ أظنُّ أن ذلكَ يجعلكَ سعيدًا.

صمت. ظهرتْ على فمه ابتسامةٌ عصبية، وهي أقرب لتكشيرة الضَّبع منها لابتسامة إنسان. لم يستطع أن يخفي درويش خوفه وفي ذهنه ما

رآه في التلفاز قبل شهور قليلة: ذلكَ الفتى النيجيري البريطاني الذي ذبح الجنديَّ الإنجليزيَّ في شوارع لندن. في رأسه عشرات الشباب الذين وُلدوا في أوروبا وانضمُّوا للمجاهدين في بلاد الله الواسعة. في ذهنه تلكَ الفتيات الفرنساويات والإنجليزيات والنمساويات، وغيرهن من شتى أنحاء أوروبا، اللائي هربن من أسرهن وانضممن للمجاهدين في سُوريا والعراق وأفغانستان تلبيةً لـ «جهاد النِّكاح». وهو «النكاح» الذي يثير جنونه ويعكِّر صفو حياته عندما يقترن الأمر ببنته ميمي. لم يعُد طُرفةً مثيرةً للنكات أو خُرافة؛ بل حقيقة رعناء مجدبة وقاتلة؛ فهو يرى الآن مشكلةً في علاقة رجلٍ واحدٍ مثل توني مع ابنته، طالما كانت علاقةً غير شرعية بالطريقة التي يدير بها عقله مسألة الشرف. فكيف تصبح ابنته وجبةً جنسيةً لكتائب من المحاربين من شتى أنحاء العالم. كان لا يرى في ذلكَ سوى الدعارة بعينها: دعارة، دعارة، دعارة.

هل توني عميلٌ سريٌّ لإحدى جماعات المجاهدين ويريد أن يستثمر ابنته؟ ومثل هؤلاء الأشرار في كل أنحاء أوروبا. لماذا لم تخطر على باله هذه الفكرة من قبل؟ نعم، قد يكون واحدًا منهم. ربما لهذا السبب أيضًا قلبي لم يُحبِبْه من أول نظرة.

وأخذ يتخيَّل صفًّا طويلًا من المجاهدين الملتحين يرتدون جلابيب سوداء قصيرة يتحدثون بكلِّ لغات العالم مثل بُناة برج بابل، يحيطون خصورهم بأحزمة متفجرات، يمارسون الجنس مع ابنته واحدًا وراء الآخر. تمامًا كما حصل للفتاة الروائدية ناديا مِن قِبَلِ البدو في الصحراء المصرية. تلكَ الحكاية المُرعبة التي قصَّتها له وهُما في الشاحنة إلى أوروبا قَبْلَ عشرين عامًا.

قالت ميمي: أبي، إذا كنتَ ترى أن الموضوع سخيفًا فلا بأس. هوِّن عليك. انسَ الموضوع. كنا نريد أن نفرحكَ في هذا اليوم المتميز من حياتنا.

قال وهو ينظر في عيني توني: أنا سعيدٌ بإشهار إسلامكَ يا ابني توني. فقط أريد أن أعرف ماذا تريد أن تفعل بعد ذلك؟

قال توني مندهشًا: بعد ماذا؟

– بعد أن أصبحتَ مسلمًا.

ارتبك توني قليلًا وهو يقول: ما يفعله كل مُسلم. أنتَ سوف تعلِّمني ما تعرفه، أو إننا سنلتحق بشيخٍ في المسجد ونتتلمذ عليه. أريد أن أصبح مسلمًا حقيقيًّا. أريد أن أكون شخصًا آخر. لقد شاهدنا أنا وميمي كثيرًا من الرسائل والندوات والأفلام، وأظن أن الإسلام دينٌ مثير؛ دينٌ به حركة وفعل حقيقي. تُحِسُّ بأن المسلمين في حركةٍ دائمةٍ في كلِّ أنحاء العالم. إنهم مثل إعصارٍ لا يهدأ، مثل بحرٍ هائجٍ. أقول لكَ صراحة: أنا لا أؤمن بالأنبياء، ولكني هذه المرة سأجرِّب أن أؤمن بالنبي محمد. أنا أرغبُ في ذلك.

كان يتحدَّث بحماسٍ منقطع النظير، وعيناه تشعَّان رغبةً وإثارة. ويبدو أنه شخصٌ حقيقيٌّ ومنفعلٌ بفكرةٍ قوية، ولو أنها أقرب إلى البحث عن نمط حياةٍ جديدٍ مثيرٍ وغريب، منها لإيمانٍ روحيٍّ بالله ونبيه محمد. ولا بأس؛ فالدخول إلى الديانات تفرضه ظروفٌ كثيرةٌ، ولكن الدين واحد. فتاريخ الإسلام الطويل يشهد بذلك؛ فهنالك من دخله إيمانًا واحتسابًا، وهنالك من دخله وهو يريد الحماية، وهنالك من دخله لأن زعيمه القبليَّ أعلن إسلامه. هنالكَ من دخله حبًّا في سُلطةٍ وجاه، وهنالك من دخله بحدِّ السيف، وهنالك من دخله من أجل امرأة، وهنالك من هو مسلمٌ بالميلاد. ويظلُّ الدين هو الدين: «اتقِ الله يا درويش، حاول أن تفهم الرجل، حاول أن تفهمه؛ ربما يصبح مُسلمًا صالحًا ويكون لكَ أجر ذلك، وهو أجر كبير وصلاح لك في الدنيا والآخرة. أن يهديَ اللهُ بكَ رجلًا خيرٌ لك من حُمر النَّعَم. لا تكن متشكِّكًا في كلِّ شيء. أنت لا تعلم ما في قلوب الناس. الله الذي خلقهم هو وحده الذي يعرف ما في نياتهم.»

طلبَ درويش من زوجته وابنته أن تذهبا لحجرة البنت، أو حجرتها، أو أية حجرة أخرى؛ تتركانهما وحدهما هنا، ففعلتا بسرعةٍ كأنهما كانتا تنتظران طلبًا كهذا من درويش؛ حيث جذبت نُورا بنتها إلى حجرتها. طلب منه الجلوس قربه، وكان يظنُّ الأب أن به رائحة خمر نتيجةً لما احتساه من عرق الهولوندا؛ لذا لم يحبِبْ فكرة الالتصاق أكثر، ولكن القرب بما يجعل مساحةً جيدةً للتفاوض، ومساحةً معقولةً لعدم جعل رائحة الخمر تحرم الآخر من تنفس هواءٍ نقي خالٍ من رائحة الخمور،

ولو أن عرق الهولوندا زكيُّ الرائحة. قال درويش وهو ينظر إلى عينَيْ حبيب ابنته: حدثني بحقيقة الأمر، هل أنت تعمل مع إحدى الشركات التي ترسل البنات إلى سوريا والعراق وأفغانستان من أجل الترفيه عن المجاهدين فيما يعرف بـ «جهاد النكاح»، وتريد أن تلعب عليَّ وعلى بنتي مقابل عمولةٍ، مهما كانت كبيرة فإنها لا تساوي ثمن الجراح التي تفتقها، والآلام التي تسببها لي ولأمها وللبنت ذاتها، أم حقيقةً أنتَ تريد أن تصبح مسلمًا حقًّا؟

– أريد أن أصبح مسلمًا. أنا ليست لدي فكرة عن كلِّ الذي قلتَه. أنا أريد أن أصبح مسلمًا من أجل نفسي أنا ليس إلا؛ فالإسلام

قاطعه درويش قائلًا: أريد إذن أن أقول لكَ كلامًا واضحًا، ليس به توريةٌ ولا بلاغةٌ ولا أي تزويق: الإسلام دينٌ ليس فيه أية إثارة أو رومانسية كما ترجو. ليس فيه أي جهادٍ بالطريقة التي قد تراها في اليوتيوب والتلفزيون وفي السينما. بعيدًا عن الدعاية والاستقطابات الرخيصة، فالإسلام دين محبةٍ وتسامحٍ وإنسانية، دين رحمةٍ ومودةٍ وكل القيم السامية؛ فالجهاد والقتال انتهى رسميًّا في الفقه الإسلامي منذ آخر المعارك التي خاضها جيش الرسول محمد ضدَّ المشركين؛ حيث قال لهم الرسول: جئنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر. وعندما سأله المسلمون ماذا يعني بـ «الجهاد الأكبر»، قال لهم إنه جهاد النفس. يعني — يا ابني — جهاد النفس من الأهواء والشرور والغوايات والكذب والنفاق والكُره، وكل الصفات الذميمة؛ أي مغالبة النفس وإخراجها من ظلامات الغرائز إلى نور النقاء، وبذلك يصبح الإسلام دينًا عالميًّا روحيًّا بحتًا، وليس دينًا عسكريًّا أو تجاريًّا أو دين مناكحات. إذا كنت ترغبُ أن تصبح مسلمًا بالطريقة التي شرحتُها لك، فبِهَا. أما إذا كنتَ تريد أن تصبح مسلمًا للإثارة وتغيير نمط الحياة، والبحث عن الجديد والرومانسية والمغامرات، والقتل والأسر والخطف والتفجير، فمن الأحسن أن تُسْلم بعيدًا عن بنتي، وبعيدًا عن أسرتي، وبعيدًا عن بيتي؛ فالدين ليس «بلاي استيشن» play station أو «فيلم آكشن» تريد أن تصبح بطلًا من أبطاله.

قال وقد برقت عيناه — وربما احمرَّتا نتيجة لبعض السيلان الطفيف للدمع: أريد الإسلام بالطريقة التي شرحتها؛ فهل ترشدني؟

قال له وهو يحملق في وجهه: دعنا نقول إنني صدقتك، على الرغم من أنني أحِسُّ وكأنني في حلم، وربما ذلكَ من كثرة ما شربت من عرق اليوم، ولكني بكامل وعيي كما ترى. سأساعدك، ولكن فلتذهب الآن؛ تفكَّر في الأمر جيِّدًا، وتأتيني في نهاية الأسبوع القادم. سأبدأ معك الدروس في الموضوعات الأساسية في الإسلام، ولكن دعنا نكون واضحين، في أية لحظة أحسست أنكَ تخدعني؛ فإنني لا أتوانى في أن أفعل بكَ ما أريد، أينما ذهبتَ في أية بُقعةٍ من الأرض، الحجاز أو الشام أو أفغانستان، ولو في ميدان معركة، سأدركَ هنالك؛ فأنا لا أتسامح في ابنتي أبدًا، هل اتفقنا؟ ابنتي هي شرفي أنا بالذات، ومَن يمسُّ شرفي باللبن أجعله يستحمُّ بالدم.

– نعم، اتفقنا. أنا شخصٌ صادقٌ مع نفسي. أرجو أن تطمئن من جانبي.

أضاف درويش بصورةٍ جادة: أما دين ابنتي فليس مسئوليتك. ابنتي تدين بما تشاء!

ففغر توني فمه دهشة: هل ابنتكَ ليست مسلمة؟

لم أقل لكَ إنها ليست مسلمة، إنما قلتُ لكَ إن دينها ليس مسئوليتك! وأظن أن المعنى واضح.

قال توني بعد أن شفط قدرًا كبيرًا من الهواء: «على كلٍّ اتفقنا.» ترك درويش توني جالسًا. استأذنه وخرج من الحجرة.

الفصل الأخير

خرج درويش من بيته في شارع «بانهوف استراسا» Banhofstrasse، وتمشّى في الطريق التي يحبُّها جدًّا، بل هي الطريق الوحيدة التي يسلكها إلى العمل، وهي ليست القريبة أو المختصرة، ولكنها تمرُّ بنقاطٍ مهمَّةٍ جدًّا بالنسبة له، أولها ما يسميه بشجرة العصافير قرب مخبز الفلاح، بعد الدوران بقليل، على الشارع نفسه الذي هو امتداد لشارع بيته؛ حيث يسمع فيها دعاء الكروان يوميًّا وهو يتحاور مع طيور الببغاوات المحبوسة في قفصٍ كبيرٍ في الشرفة المقابلة. يفصلهما شارعٌ أسفلتيٌّ متسع، يظنُّ دائمًا درويش أن طيور الكروان الطليقة تضع خطط هروبٍ فاشلةً للببغاوات كلَّ يوم، وربما يومًا ما ستنجح تلكَ الخطط في أن تنال الببغاوات الحزينات حريتهن، فهو كلَّ مرةٍ يصاب بخيبة أملٍ عندما يسمع صوت الببغاوات؛ يعني أن خطط الكروانات التي استخدمتها بالأمس لم تنجح أيضًا. وبمجرد أن يمرَّ درويش يُغرِّد الببغاء فتردُّ عليه الكروانات الطليقات في الشجرة المقابلة، تشرح له تفاصيل خطة الهروب الجديدة. هذا الشيء يعجبه جدًّا، ويحزنه أيضًا. يتوقَّف قليلًا. يترك كل جسده وخياله وروحه لتغريد الطيور. في كثيرٍ من الأحيان تسيل دمعةٌ بصورةٍ غير إراديةٍ على خده، حينها يقرِّر المضيَّ قدمًا في مشواره. والشيء الآخر في الطريق ذاتها عند المجرى المائيِّ الذي يمرُّ غرب وسط المدينة، وقريبًا من بار وفندق «هنتر بيرج»؛ حيث تُوجد صيدلية الشعب التي يعمل فيها صديقه الدكتور «أولف» Ulf. يكتفي بتحيته، وربما تحديد

مواعيد سريعة للقاءٍ في نهاية اليوم من أجل شُرب بعض البيرة معًا، وتبادل الأخبار، وربما الذهاب إلى «نيكسوس» Nexus، إذا كان به عرضٌ موسيقيٌّ، أو معرضٌ تشكيليٌّ، أو فيلم جميل. الاثنان يفضِّلان الحفلات الموسيقية التي بها فرقٌ تستخدم «الشيلو» أو «الكونترباس». لا يذهبان مطلقًا إلى «نيكسوس» عندما تكون هنالكَ فرق شبابية. يكرهان المُوسيقى الصاخبة والرقص الخليع، وإذا كانت تُخْتَار الفرق والفعاليات الموسيقية وفقًا لمزاجيهما وذوقيهما؛ لفضَّلا أن تُجمع كل النقود المخصصة للفعاليات الموسيقية وتُجنَّب لحفلٍ واحدٍ كبيرٍ تُدعى فيه المُغنية الكندية «سيلون دايون» أو «ابن علي فيكاتوري». فـ «عرضٌ موسيقيٌّ واحدٌ جيدٌ خيرٌ من عشرات العروض التافهة.» حسب تعبير الدكتور أولف. واليوم هو الأحد؛ الصيدلية مغلقة، وهذا لا يُمكِّنه من أن يحيي صديقه أيضًا تحيةَ حبٍّ صامتةً ووُد، أن يبتسم له إذا لم يكن مزاجه عكرًا وأموره مقلوبة رأسًا على عقب. وقبل أن يصل «ساحة المدينة» Rathausplatz، فكَّر أن يحدد وجهةً معينة يمضي إليها: هل سيتصل على صديقه أولف؟ ربما يكون هو أيضًا يحتاج لمن يتحدث إليه؛ فاليوم الأحد، ودائمًا ما تكون كلُّ أسرة ببرنامجها الخاص، والناس لا يحبون أن يُزعجوا. «حسنًا، هل أتمشَّى في الغابة المجاورة، وربما أصل إلى كنيسة الراهب في القمة الجيرية، وبعدها بقليل صخرة الأم التي سقطت من عليائها والتقطت جرثومة موتها في عيد ميلادها الخمسين؟» ولكنه أيضًا تذكر أن اليوم هو الأحد، والراهب لا يكون فارغًا في هذا اليوم بالذات؛ فهو يوم عملٍ شاقٍّ بالنسبة له، أو يوم عمله الوحيد طوال الأسبوع.

يقيم الراهب وحدهُ طوال شهور الصيف والربيع، ويأتيه الناس في زيارةٍ في أيام الآحاد والإجازات، يأخذون منه البركات، ويناقشونه في أمور الإيمان والحياة. لقد التقى به مرتين ولم يتناقشا في شئون ذات قيمةٍ كبيرة. كان نقاشًا عاديًّا لا علاقة له بأي دين أو نظام إيمان، ولكن من أهم ما قاله له الراهب: «الناس يناقشونني ويستشيرونني في أمور الحياة، وهم الذين أعرف بها مني. أنا هُنا في جبلٍ وبين جدران هذه الكنيسة، وهم في الشوارع والمصانع والمزارع والمدارس والبيوت، يحيطون أنفسهم

بكل مظاهر الحياة؛ فأنَّى لي أنا بعِلْمهم ومعرفتهم وخبرتهم الحياتية؟ أنا الذي في حاجةٍ إلى أن أستشيرهم وليس العكس!» وعندما تذكَّر ذلك، أخذت همته تبرد في الذهاب إليه. إنه في حاجة لشخصٍ ما يناقشه في الأمر.

حسنًا، صديقي «جانو» السُّوري الكردي الفنان. إنها فكرةٌ جيدة. لا لا ليست فكرةً جيدة. نعم، جانو لديه موضوعٌ واحدٌ لا يحيد عنه، وهو موضوع الفيلم الوثائقي عن كرديٍّ من مدينته «كُوباني»، في المهجر، يجلس في مقهًى ويتذكر أفراد أسرته الذين يحاولون دخول تركيا عبر ممراتٍ جبلية وعرة، بينما تحيط بهم مخاطر شتى، أكثرها رُعبًا المليشيات والحكومات المعادية، والألغام البشرية، وبعض الوحوش. وسيحكي لي القصة من جديدٍ للمرة الألف، وهو دائمًا ما ينسى أنه قصَّها لي من قبل بالطريقة ذاتها والتفاصيل ذاتها. وأنا أبديتُ له الآراء ذاتها، واقترحتُ عليه الاقتراحات ذاتها، وقلت له: «جانو، أنا لا أفهم في السينما لا وثائقية ولا روائية، وأنا شخصٌ ضعيفُ الخيال؛ أي لا أستطيع أن أساعدَكَ في شيء، وليس لديَّ نقودٌ لأدعمك بها.» فيقول لي: «استثمر علاقاتك؛ علاقةٌ جيدةٌ تساوي تقريبًا مليون يورو وسيدةً جميلة.» ويضحك من كل قلبه. جانو نادرًا ما يصفو، وإذا فَعلَ، يصبح أرقَّ من النسيم، ويغني لـ «فيروز» و«مرسيل خليفة»، وينسى موضوع الفيلم تمامًا، ولكن إذا شرب فقط العرق التركي ماركة «راكي»، الذي يصفه بأنه مُقدس، وأنا لم أرَ له أية قدسية، وإذا كانت له فضيلةٌ واحدةٌ؛ فهي أنه يجعل جانو ينسى موضوع الفيلم، ويغني لمرسيل خليفة أغنيةً واحدةً فقط لا يَملها:

بين رِتَّا وعيوني بُندقية،
والذي يعرف رِتَّا
ينحني ويصلِّي لإلهٍ في العيون العسلية.

وحدثني مرة أنه رأى «رِتَّا»، وهي امرأة كُرديةٌ جميلةٌ من سُكان الجبال. قابلها الشاعر «محمود درويش» في مكانٍ ما من العالم. رُبما في «إسرائيل»؛ فالأكراد هم الشعبُ الوحيدُ الذي وَطَّنهُ اللهُ في العالم كُلِّه، «ولكن تلكَ مغامرةٌ لستُ في حاجة إليها الآن ...» فقد لا نجد العَرق التركيَّ

الجيد؛ فيحكي لي جانو عن فيلمه الوثائقيِّ اللعين، وأكون قد خَسرتُ يومي تمامًا، كما خسر الشاعرُ محمود درويش من قبل «لسع الزنابق».

وفجأةً هتف هاتف نفسه: لماذا لا تناقش زوجتك نُورا؟ هي سيدةٌ واعيةٌ وعميقةٌ وعمليةٌ، وشريكةٌ أيضًا في الأمر. لماذا تمضي بعيدًا في البحث عن شخصٍ آخر ولديك في البيت زوجتكَ، وبنتك أيضًا؟ لماذا لا تبدأ من هنالك؟ نعم، نحن لا نرى ما هو قريبٌ منَّا إلا إذا مضينا بعيدًا عنه؛ لأن القريب تحت ظلِّ النظر.

لا، أنا أعرف ما هو رأي نُورا، أعرفها جيِّدًا. في الغالب ستكون مطمئنةً للأمر. ألم ترَ كيف كان وجهها هادئًا ولم تكن قد فوجئت به، كأنما قد تناقشوا فيه مِن قَبْل أن يأتوني به؟ هل هم متفقون عليه؟! في أسوأ الحالات ستقول لي نُورا: «هو خيارهم وهم أحرار. ولماذا أنت لا تترك الناس وشأنهم؟» وتلوي شفتيها الرهيفتين في امتعاضٍ. وتضيع ابنتي كضحيةٍ للحريات الأوروبية المزعومة. أنا شخصٌ غير محظوظ. لو أنجبتُ ولدًا بدلًا من هذه البنت لما واجهتني أي مشاكل. فـ «الرجل في الآخِر رجل»، والبنت إما أدخلتك الجنة أو حشرتك في الجحيم. وبنتي من ذلكَ النوع الأخير: أنجبتُها من أجل أن تُشيِّعني لجحيمٍ خاصٍّ بآباء الزانيات، ولكن أنا لستُ ممن يُحْشَرون هنالك. سأدافع عنها إلى آخر لحظة. هي ابنتي؛ رغم أنف القانون هي ابنتي. أليست هي ابنتي؟ أليس لديَّ الحق في حماية ابنتي؟ بحق الجحيم، ماذا يفعلان في هذه اللحظة في البيت؟ أظنني شممتُ شيئًا عندما كان يتحدث معي توني. أظنني شممته ينفحُ من ميمي بالذات. أهي رائحة فراش؟ تبًّا تبًّا. سُحقًا للقانون الذي لا يميِّزُ ما بين الأخلاق والحُقوق الأبوية في الحماية والرعاية والتربية القويمة، وفقًا لمعتقد الأب. سُحقًا لأوروبا كُلِّها، عليها اللعنةُ وعليَّ وعَلى العالم!

– «كِرستي.»

– «كِرستي.»

– تتحدث وحدكَ يا رجل؟

– آسف. آسف والله.

كانت ساحةُ المدينةِ فارغةً كما هي العادة في يوم الأحد، إلا من بعض المواطنين. ربما هم بعض السياح القادمين من مدينة

«بُحَيرة السِّجن» Zell am See الشهيرة المجاورة. عربُ الخليجِ الأثرياء، وروسٌ، وألمانٌ، وآسيويون يتمشون في المتاجر الفاخرة المُحيطة بميدان ساحة العُمدة. كعادة الناسِ هُنا دائمًا هادئون ومرتبون ويبدون من الخارج كأنما لا تُوجد مشاكل في الكون كله. دَعْك من مشاكل شخصية تخصهم. كما يدلُّ شكله هو أيضًا من الخارج، ولكنه بينه وبين نفسه يعرف أن وراء «السواهي دواهي»، وأن البعض يحمل ما تنوء به الجبال الشامخات، ولكن الحفاظ على المظهر الجميل الهادئ وعدم التشكِّي هو كلمة السرِّ في هذه البلاد. دارَ قليلًا في ساحة العُمدة. كان يودُّ أن يحتسي كأسًا كبيرةً من البيرة في المطعم الملاصق لمبنى المحلية Rathaus، ولكنه غيَّر رأيه ومضى عبر الزقاق الضيق ما بين المحلية وبنك «رايفسايدن» الذي به حسابه الخاص، ووجده مغلقًا أيضًا. كانت في الواجهة يافطة المطعم الصيني «لوتس». ابنته ميمي عندما كانت صغيرةً كانت تحبُّ أن يأخذها إليه في كلِّ يوم أحد، بعد الظهر؛ حيث إنهم يقدمون وجباتٍ خاصَّة في أيام الآحاد من كلِّ أسبوعٍ للأطفال: لم أُنشِّئها بسهولة. لقد دفعتُ من أجلها الكثير، من الزمن والمال، ومن صحتي، ولو أنني لم أفعل كما يفعل البعضُ من الآباء، مثل الكاتب الألماني «كارل فلنتين» Karl Valentin وأُعِد قائمةً بمصروفاتها منذ خرجتْ من بطن أمها؛ لأطالبها بها في عيد ميلادها الثامن عشر، جزءًا مميتًا وبائلًا من طقوس الاحتفال؛ تلكَ الطريقة الوسط ما بين السماجة والطُّرفة. فلقد عملتُ كلَّ شيء عن حبٍّ وبدون مقابل، وكنتُ نِعم الأب، وأنا الذي انتبه لشرور مُعلِّم التربية الإسلامية في الوقت المناسب عندما جاءتني بسؤالٍ عجيب: يا أبي، هل أمِّي كافرة؟

سألتها: من قال لكِ؟

قالت: سورةُ «الكافرون».

– من أين عرفتِ سورة «الكافرون»؟

قالت: شرحها لنا الأستاذ «سيف الرسول خان» في حصة الدين الإسلامي.

نعم، شهدتْ سجلات الشرطة في المدينة الصغيرة في ذلكَ اليوم تدوين أول مجزرةٍ بشريةٍ لم تقع بالفعل. من المفترض أن يكون ضحيتها أستاذ

مدرسةٍ ابتدائيةٍ مِن قِبَل وليٍّ أمر تلميذةٍ لاعٍ. أقصد محاولة ذبحه بسكين المطبخ: فأنا لستُ عنيفًا، ولكن عندما يكون الأمر له علاقةٌ ببنتي أصبح شرسًا مثل قطٍّ محصور. كلُّ ذلكَ من أجلها. أنا لم أقصِّر معها أبدًا في يومٍ ما. لقد كنتُ دائمًا إلى جانبها. لو كانت ولدًا لما أرهقني كما فعلتْ ميمي. فإذا زنت البنتُ البكرُ أدخلتْ والديها النار في يوم القيامة. أما الرجل فيتحمَّل وزره بنفسه فقط. كيف لي أن أخطئ رائحة المَنيِّ؟ لقد انتهى كلُّ شيءٍ ويقول لي: «أسلم!» نعم، أسلم كما يُسلم الذئب الكاسر، كما تُسلم الجحيم.

– «كِرستي درفيش!»

– «كِرستي!»

– أنت تتحدث لنفسك!

لا أحد يتوقع إجابة، والقارئ الحصيف هو الذي لا يترك مجالًا للكاتب أن يدعه يخمن نهاية الرواية، والكاتب الماكر مثل السياسيِّ العجوز يتلاعب بالبيضة والحجر في الكفِّ ذاتها. أما الراوي الذي يتعجَّل نهاية الرواية ليحرِّر نفسه من أجل أغراضٍ أكثر أهمية — في ظني، وليس كلُّ الظن إثم — فالموت أولى به.

الرجلُ الخراب

ملحوظةٌ مهمَّة: هذا الجزء من الرواية، وكلُّ الحكايات التي فيه هي من وجهة نظر ثلاثةٍ من أبطال الرواية غير الأساسيين؛ وهم: توني وميمي ونُورا؛ فالشخصيةُ الأساسيةُ في هذه الرواية هي شخصيةُ درويش فقط. وهذا لا يستقيم مع أساسيات الرواية، كما هي في كتاب «جوانب الرواية» Novel aspects المدرسي الشهير الذي يقول: إن الرواية عليها أن تحتوي في متنها على ثلاث شخصياتٍ أساسيةٍ على الأقل.

بالطبع ستجد القارئةُ والقارئُ الكريمان معلوماتٍ كثيرةً تناقض المعلومات التي ذُكرت في الجزء السالف من الرواية؛ أي الجزء الذي رواه الراوي مشكورًا، وتدخَّل الروائي — أي شخصي الضعيف — كثيرًا في بعض الثيمات. وهو تَدخُّلٌ مُخِلٌّ في أغلبه، إذا لم يتسامح معه القارئ الصارم الذي يبحثُ عن حقيقةٍ ثابتةٍ لا يمكن التلاعب بها أو فيها، وأنَّ على الرواية أن تمضي في خُطوطٍ مستقيمةٍ مُتوازيةٍ، وألا تتقاطع إلا بمبررٍ سرديٍّ مقنع، كما عند «ليو تلستوي» و«آرنست همنجواي» والعبقري الماكر صاحب «عشيق الليدي تشاترلي»؛ «دي إتش لورنس». أما القارئ المُرائي المُغامر الصُّعلوك الذي تحدث عنه «تي إس إليوت»، فقد يكون له رأيٌ آخر. لا ندري ما هو بصورةٍ قاطعة. والشيء الآخر: أن نهاية هذه الرواية ليستْ من اختياري ككاتب، ولا اختيار الراوي المستبدِّ الذي صاحبكم في عملية السرد. هي من اختيار نُورا شُولز بالذات. فكانت خطَّتي لإنهاء هذه الرواية تذهب إلى عودة درويش إلى مصر أو السودان مرةً أخرى، هاربًا

بابنته ميمي من جحيم الفساد الأخلاقيِّ والقيميِّ الأوروبي. قد يزوِّجها هنالكَ أحد أقربائه، بعد أن يُمزق جوازها ويلقيه في أقرب نهرٍ موسمي، ويُسكنها في قَريةٍ لم تتعرف عليها أدقُّ الأقمار الاصطناعية؛ لأنها ببساطةٍ لا تُوجد في الخارطة السياسية للعالم. في عودة درويش، ليست العِبرة في المكان، ولكن أريد أن أستخدم القُوَّة الرمزيةَ الهائلة للمكان، والدلالات النفسية والاجتماعية التي تتضمنها مسألة العَودة؛ وبذلك أكون قد كتبتُ نهايةً للروايةِ مقفولةً بصورةٍ صارمةٍ وجيدة. نوع النهايات التي تجعل القارئ يتنفس الصُّعداء، ثمَّ يتناول كوبَ ماءٍ كبيرًا، يشربه في جُرعات متتاليات، ثمَّ يصرخ بأعلى صوته: «تبًّا!»

ولكن كانت لنورا وجهة نظرٍ مختلفة في موضوع النهاية، وقمتُ بالتنازل لها عن حقِّي الأدبيِّ في اختيار نهاية الرواية، وحدث ذلكَ بكامل رغبتي، ولم أستشر الراوي؛ لأننا منذ أن اختلفنا في موقعٍ ما من الرواية، لم أستطع أن أتحصَّل عليه مرةً أخرى. وأنتم تعلمون أنه ليس للرواة أوطانٌ أو عناوين، ولا تستطيع شُرطةٌ ما القبض عليهم. ونذكر هنا مرةً أخرى قصة الراوي الذي اغتصب صديقتي الروائية الفاضلة «كلثوم فضل الله». أظنني قلتُ فيما سَبق: «راودها عن نفسها.» لا إنه اغتصبها — لقد أكدتْ لي ذلكَ بنفسها — وهرب في مكانٍ ما من السَّرديات الكُبرى؛ تلكَ المقدسة؛ حيث يختلط الحابل بأكثر من نابل، وتُمنع النساءُ من الخوض في تلكَ البِرك السردية الآسنة.

ولو أن ذلكَ كان حدثًا غريبًا إلا أنه عاديٌّ، ويمكن حدوثه في عالم يحتفي باللامعقول وما وراء الطبيعة، ويؤمن بأن هنالكَ شخصيةً عديمة الهُوية اسمها «الراوي»، وبه عددٌ مهولٌ من الكُجُوريين، والسَّحرة، ورماة الودع، وقارئي الكف، والدنباريين، وعلى الأقل واحدٌ من مُدَّعي النُّبوة يوميًّا، وبه «كمال الجزولي». فلمَ أضيع وقتًا كثيرًا في البحث عنه؟ لذا تنازلت هُنا من جانبي لنُورا بكامل إرادتي، ولو أنني كنتُ في تلكَ اللحظة سكرانًا؛ فالبرد قارسٌ والجليدُ يهبط بشدةٍ من السماء، وأحِسُّ بأن الدم يتجمَّد في عروقي، وليست لديَّ امرأةٌ ألوذ بها من الزمهرير الذي لا علاج له غير جسد الآخر الحميم؛ فاتَّبعت نصيحة صديقي «رودلف راينر» — وهو

من الذين أهديتهم هذه الرواية — الذي يقول: «إن الويسكي من عمل الشيطان، ولكنه يدفئ الدم ويمنعه من التجمد.» حسنًا، وقبل أن أنسحب نهائيًّا، أريد أن أؤكد شيئًا مهمًّا جدًّا: أن اتهام نُورا لي بالتعاطف مع درويش هو صحيحٌ لحدٍّ ما. وهذا اعتراف كريمٌ من جانبي يجب أن يُعطى قدرًا من الاحترام معقولًا. أما تزويري لبعض الوقائع السردية، فهذا ما قام به الراوي الغائب الآن عن النص، وليست مهمتي ككاتبٍ أن أبحث له عن عذرٍ، أو أن أدفع التهمة عنه. على الأقل نحن متخاصمان. واختلاف الرأي يفسد للوُدِّ جُلَّ قضيَّاته، ويؤسِّس لكراهيةٍ يسمِّيها البعضُ ثمرة الاختلاف السلبي. ثانيًا: عَليَّ أن أعترف بكرمٍ أيضًا: أن الصورة التي ترسمها نُورا لدرويش قد تكون الأقرب؛ فهي زوجته وشريكته في الفراش. ومن شارككَ الفراش عرفكَ بعمق؛ فما يهمس به الجسدُ للجسدِ لا حدود له. وسوف أترك لكم التقييم.

وأخيرًا، أستودعكم الله، وأترككم مع أبطال الرواية الثانويين يسردون وقائع الختام، وأكرر «غير الأساسيين»؛ ليكملوا لكم هذا النص المُربك، خارج حدود مسئوليتي. وأظنني قمتُ بهذا السلوك الجبان مِن قَبْلُ في بداية روايتي الموسومة بـ «مخيلة الخندريس: ومن الذي يخاف عثمان بُشرى؟» أستميحكم عذرًا أنني سوف أثرثر مرةً أخرى في ذكرى روايتي الخندريس، وهي روايةٌ قصيرةٌ كتبها في الغالب الأبطال أنفسهم، ما عدا فصلًا واحدًا هو الذي كتبتُه بنفسي. وأستطيع أن أقول إنني استمتعتُ بكتابة ذلكَ الفصل جيِّدًا. وأنا دائمًا ما أستمتع بالرواية أثناء كتابتها، وأعتبرها في ذلكَ الحين أجمل رِوايةٍ أكتبها على الإطلاق، بل أعتبرها عمل حياتي، ولكنني بمجرد أن أضع آخر نقطةٍ فيها؛ تصبح مثل الجيفة، ولا أحب قراءتها أبدًا أو الاقتراب منها، وأحتار كيف يقرؤها الآخرون! بعضهم — للأسف — يشيد بها ويعتبرها عملًا جيِّدًا. وطبعًا هنالكَ من يكتشف الخدعة ويحتقرها بعد قراءتها مباشرةً، ثمَّ يبحث عن عملٍ آخر لي يعيد له توازنه الذي فقده بالقراءة، وثقتَه فِيَّ ككاتب. ومن هذه العملية بالذات، يجني الناشرون أرباحهم الطائلة أو يحققون خسائرهم المُمِيتة. وتلكَ فجيعة أحد الناشرين السودانيين، وهو الصديق «نُور الهُدى» صاحب

دار «عزة» الذي تحفزه الخسائر على مواصلة العمل بجدٍّ أكبر؛ فالخسائر الكبيرة مثل الاستمناء الذاتي، طالما يعاودكَ الحنين إليه؛ لأنكَ أبدًا لا تصل لحالة الإشباع الكاملة.

شهادة توني

أنا لا أحبُّ أن أتحدث عن هذا الموضوع على الإطلاق. لقد خدمني الحظُّ بأني لم أُصَب إصابات بالغة أو أموت. والموت خيرٌ من تلكَ الإصابات المؤلمة التي تلقي بك وحيدًا في مستشفًى قصيٍّ تجتر ذكرياتكَ الباليات. كلُّ الذي أتمناه أن أشفى سريعًا من جراحي، كما شُفيتُ من الكابوس الذي يُسمى: دَرويش.

ما جذبني لميمي هو الغرابة التي تبدو عليها. أقصد ما يجعلها مختلفة؛ بدءًا من شكلها الظاهري، شعرها المُجعد الخشن، لونها الأسمر، وثقافتها المختلفة نوعيًّا عن ثقافة الوسط الذي نعيش فيه. ولو أنني سريعًا ما اكتشفت بُطلان الافتراض الأخير؛ لأن ميمي لم تكن شيئًا آخر ثقافيًّا واجتماعيًّا غير كلِّ البنات اللائي في عمرها، بل كانت تقليديةً لدرجةٍ ما؛ حيثُ إنها حَمَلتْ عن أُمها بعض النزعات الوطنية، وهو — لحدٍّ ما — شيءٌ مزعج، بالنسبة لشخصٍ ينحدر من أسرةٍ تحمل تاريخًا حزينًا ممتلئًا بالدم والدموع مثل أسرتي. وكنتُ أحبُّها، وهي تحبُّني أيضًا. وبالنسبة لي ولها، كلانا نمثِّل لبعضنا البعض الحبَّ الأول؛ فهي المرأة الأولى في حياتي، وكذلك كنتُ الرجل الأول والوحيدَ في حياتها. وتعاهدنا على ذلكَ ما دمنا أحياء، بل أقسمنا لبعضنا البعض إذا مات أحدنا فلن يتخذ الآخرُ من بعده خليلًا آخر في حياته. وأظن تلكَ كانت رومانسيةً مفرطة أشبه بما يحدث في بعض المسرحيات الهزلية، ولكن الحُب نوعٌ من السُّكْرِ اللذيذ، وهو كما يقول أبي: «يُورث العبط والهبل.» ولكن عندما رآها أبي قال لي: تُوني، اعبدها! إنها إلهٌ نوبيٌّ أُرسل إليك من أنهار «كُوش»؛ حيث لا تحتسب!

كان أبي يبالغ قليلًا. والعُتبى على البيرة البيضاء. والعُتبى على الوقت الذي تناقشنا فيه؛ فأبي دائمًا ما يتمتع بمزاجٍ مرحٍ وجيدٍ بعد التاسعةِ

مساءً. في الصباح يكون مشغولًا بمواجهة العمل. عندما يعود من العمل وتعود أمي، يكون كلٌّ واحدٍ منهما مشغولًا بمواجهة الآخر، ثمَّ نواجه جميعنا الطعام. نواجه الكتب والتلفاز؛ ومن ثمَّ يتفرغ كلٌّ منا لنفسه. وتلكَ هي ساعة صفاء أبي.

ما لم تعرفه أسرة ميمي أن أمي وأبي من أصلٍ يهودي، وهُما من بقايا أسرٍ هربت من قمع النازيين في أواخر أيام الحرب العالمية الثانية، تقريبًا في ١٩٤٥، وكانت ضمن عائلاتٍ أقامتْ في مُعسكرٍ ضخمٍ بُني بسالفلدن لإيواء اليهود الناجين من آلة الموت في نهاية الحرب العالمية الثانية؛ حيثُ وفد إليه المئات من كلِّ أنحاء أوروبا. وعندما هاجرت الأسر في ١٩٤٧ من سالفلدن إلى إيطاليا عبر جبل «كمرلا تون» مشيًا على الأقدام، في تلكَ الطريق الوعرة، فإن أسرتيهما فضَّلتا البقاء في ضيافة ورعاية أحد الفلاحين النمساويين الأثرياء؛ فهُما يهوديان. أما أنا فأؤمن بأن هنالكَ ربًّا خلق الكون؛ قد يكون «يهوه»، قد يكون «الله»، قد يكون غيرهما، ولكني لا أؤمن بأيٍّ من الرُّسل. وهذا بالتأكيد شأنٌ يخصني. قد يكون «ليس صحيحًا بالمرة»، كما تقول ميمي، ولكنه أيضًا احتمالٌ واردٌ طالما كان هنالكَ من يؤمن به، مثلي.

وقد أخبرتُ ميمي بذلك مِن قبلُ للأمانة، وأظنُّ أن الراوي أو الكاتب قد ذكره في بداية هذه الرواية. أنا لم أكذب، ولكن لم يسألني أيٌّ من أفراد أسرتها عن دين أمي وأبي، ووالداي لم يتبرَّعا بالإخْبارِ عن دينهما؛ فهما يهوديان في الأصل، ولا يمارسان أية طقوسٍ دينية. في الواقع، لم يزورا القُدس ولم يرها جدودهما أيضًا، ولا يؤمنان بأرض ميعاد؛ فأرض ميعادهما أينما وجدا الأمن والسلامة والطمأنينة والمساواة، يقول أبي: «إن الإيمان لا يحتاج لطقوس. الطقوس تقود إلى التمييز. ولم تستطع تلكَ الطقوس حماية أحدٍ مما يجره التمييز من دمٍ ودموع.»

ولم يصحبا أبدًا في حياتهما الحجيج إلى إيطاليا. الحجُّ الذي يقوم به اليهود كل عامٍ، في الأسبوع الأخير من شهر يونيو، متتبعين الطرقَ البريةَ الوعرةَ التي مشتها تلكَ الأسرُ اليهوديةُ إلى إيطاليا. ولم يشتركا في أية احتفالات أخرى. يبدو أن الإحساس بالرُّعب والترصُّد ما زال يسيطر

عليهما، ولو أنهما شهدا الحرب وهما طفلان يافعان، ولكن ما رسخ من خوفٍ حينها قد بقي للأبد، يقولُ أبي: «إذا لم تخَفْ لم تعِش.»

الزمن القليل الذي رأيتُ فيه درويشًا وتحدثت معه كان كافيًا للحكم عليه، ولا يمكن أن أتجاهل كلَّ ما حدثتني به ابنته عنه. وما كانت ميمي تستطيع أن تقول لي كلَّ شيءٍ قبيحٍ عن أبيها. وهذه طبيعة البشر: إننا نحبُّ آباءنا، وكيفما كانوا نقبَلُهم. فلم يكن شخصًا سهلًا على الإطلاق؛ فلقد كان أثقل من كابوس، ولم أعرف أبًا على وجه الأرض يعلن عن مِثليَّته بهذه الوقاحة!

كان أبي يحمِّلني المسئولية كاملة؛ لأنني طلبتُ من درويش أن يتدخل في شأن يخصني أنا وميمي، أو يخصني وحدي فقط؛ فمسألة التدين قضيةٌ شخصية. ولم يفهم أبي فكرة أننا كنا نُريده أن يبتسم؛ مجرَّد ابتسامةٍ تنمُّ عن رضًى أو مشاركةٍ دون تكلف؛ فقد كان صارمًا، حتى وهو يحكي لنا بعض النكات. يبدو أنه كان يفكِّر في قتلي طوال الوقت. لو كنتُ نبيهًا بما فيه الكفاية لعرفتُ ذلكَ في وقته، ولكنني أيضًا ما كنتُ أرغب في الذهاب إلى الجبل للتمشية وفقًا لاقتراحه. ليس لأنني كنتُ أشك في نواياه؛ بل أحسستُ أنه لا يرغب في أن أصاحبهم إلى هنالك، كما لو كانوا يقومون بنزهةٍ أسريةٍ بحتة. وتحت إلحاح ميمي، صَحبتُهم.

حدثتني ميمي أيضًا أن والدها مغرمٌ بقصيدة «الأرض الخراب». وما المشكلة؟! فأبي أيضًا مغرم بـ «ماريا ليركة» ويقرؤه مع القهوة والبيرة من ذاكرته مباشرة، ولكن الغريب في أمر درويش أنه يحبُّ مقطع الجثة؛ تلكَ التي بالحديقة. وعندما كان يردِّدها ونحن عند قبر الجدَّة، أحسستُ بالرعب الحقيقي. وحينما طلب منا إحضار بعض أزهار الليلك البري لوَضْعه على القبر، عرفتُ أن الأمر سوف لن يمضي بسلام. ليس عليَّ أن أتبع الظنون وإلَّا أفسد يومي الجميل مع ميمي وأمها اللطيفة الطيبة. في طريق العودة، حدث كلُّ شيءٍ في سرعة البرق. في الحقيقة وجدتُ نفسي أعلق في الهاوية على أغصان شجرةٍ ضخمة، ولحُسن الحظ أنني لم أفقد الوعي، وإلا لتدحرجتُ في العُمق وانتهيت. فظللتُ مُمسكًا بالأغصان إلى أن جاءتْ فرقة الإنقاذ من المدينة وحررتني من كارثة حياتي.

شهادةُ ميمي

اسمي الحقيقي «مايا». لقد اختار لي اسمًا جميلًا ومتميزًا، وهو اسمٌ نُوبيٌّ قديم. أنا أحترم أبي، ولكن تدخله السافر في تفاصيل حياتي لا يعجبني كثيرًا، ولا يمكن أن أجد له مبررًا معقولًا. ولقد تعلمتُ منذ الروضة أن تكون لي شخصيتي المستقلة، أن تكون لي خياراتي في الحياة، لكنه كان لا يتوانى لحظةً في عمل كلِّ ما يراه هو مناسبًا لي، متجاهلًا بكلِّ وقاحةٍ رغبتي وخياراتي. كان هو المسئول عن كلِّ شيءٍ، والسائل عن كلِّ شيء، والعارف لما لم يسأل عنه بدءًا بالطعام، نهايةً بالملبس. لأبي رأيٌ في لون اللباس الداخلي الذي ألبسه. لقد حوَّلني — كما تقول أمي — إلى دميةٍ لا قرار لها، لا شخصية لها، مترددةٍ ومنطويةٍ على ذاتها.

وقد ضربني عدة مرَّاتٍ لأسبابٍ تافهةٍ؛ ممَّا اضطرَّ أمي أن تبلغ عنه الشرطة؛ خوفًا عليَّ. كنتُ أحِسُّ به يتبعني كظلِّي، وكان بإمكاني أن أترك له البيت في عمر الـ ١٨ عامًا، أو قبلها بكثير. نعم كانت هنالكَ لحظات جميلة أحببتُه فيها، ولكنها كانت قليلة وعابرة وقصيرة حالما تعكرها طبيعة أبي في افتعال المشاجرات وإبداء المُلاحظات الثقيلة المميتة. وما كنت أرغب في موته، على الأقل ما كنت أظنني أن أشارك في تلكَ الفعلة، ولو بالقبول بها وتزوير أقوالي لتتوافق مع أقوال والدتي، ولكنه وضعني في موقف أجْبرني على ذلك: لقد فعلت أمي خيرًا. لأول مرة أحِسُّ بالحُرية، أحِسُّ بإمكاني فعل شيءٍ أرغب فيه.

شهادةُ نُورا

دعوني أقول: إن الصورة التي رسمها الراوي والكاتب لدرويش، وربما كثيرًا من الأحداث ليستْ صحيحةً، بل مراوغة. بقليلٍ من إعمال الفِكر يمكن اكتشاف زيفها. إنهما وقفا في صفِّ درويش وزيَّفا كثيرًا من الحقائق لأجله. كلُّ السرد الذي قرأتُه في أوَّل الرواية أربكني كثيرًا، وشكَّكني فيما يرميانِ إليه، وميَّزني من الغيظ. وما يحيرني بالفعل: كيف يسمح شخصٌ محترمٌ مثل الكاتب، وآخرُ اعتباريٌّ — لا أدري هل يمكن وصفه بواحدةٍ

من صفات البشر أم لا — لنفسيهما أن ينحازا لرجلٍ مثل درويش؟! ويستخدما كل إمكانياتهما الفنية في أن يُظهِراه في صُورة بطلٍ يُمكن التعاطف معه؟! فدرويش شخصٌ لا يُحتمل بمعنى الكلمة؛ شخصٌ لا يخجل من أن يتدخل في أبسط الأشياء التي تهمُّنا كنساء، ولا يرضى إلا بأن تمرَّ كلُّ كبيرةٍ وصغيرةٍ من أمام عينيه. رجلٌ كثير الشكِّ والغيرة. نعم، وجدتُ الكلمة: إنه غيورٌ جدًّا، ولكن تلكَ الغيرة الهدامة؛ الغيرة المُدمرة.

إن درويشًا دمَّر حياتنا بالفعل، وسبَّب عُقدًا نفسيةً لا حصر لها لابنته، وصَنَعَ منها مخلوقًا انطوائيًّا بائسًا. ولم تتحصَّل ميمي على صديقٍ إلا بعد علاجٍ وجهدٍ نفسيٍّ كبيرٍ ومرير. لقد أنفقتُ كثيرًا من المال والوقت في سبيل ذلك، وأخيرًا يأتي درويش لينهيَ حياة ابنتنا، بعدما أفسد حياتي كُلَّها، وصبرتُ عليه سنواتٍ كثيرة؛ ليس لشيءٍ إلا لأنني لا أحبُّ أن أبدأ من الصفر. وفكرة الطلاق هنا تعني الدمار الشامل لي وللبنت وله، ولا أحبُّ أن أكرِّر فكرة الأسرة المتفكِّكة الفاشلة التي كانت أسرة أمي وأبي نموذجًا ساخنًا لها، كما أنَّ التعايش معه ليس مستحيلًا. إنه صعبٌ ومعقدٌ ومؤلمٌ، وذلكَ كلُّ شيء. الشكُّ منهجه لتفسير كلِّ ظاهرة؛ كان يتهمني بكلِّ ما هو مُخزٍ ومُسيء. وللأسف، درويش لا يتردَّد في أن يستخدم يده لحَسْم أيِّ خلاف معه، وهو أيضًا كذابٌ، يكذب في كلِّ شيء، حتى عمره لا أحد يعرف متى وُلد بالضبط، ويستخدم ذلكَ لمصلحته؛ فقد أخذ المعاش وفقًا لعمره المُعلن، ولكنه ما زال يعمل بصورةٍ غير شرعيةٍ تهرُّبًا من الضرائب. وعندما أبديتُ له تلكَ الملحوظة ذات مرةٍ صفعني في وجهي بعنف، ثمَّ أخذ يعتذر لكي لا أبلغ عنه البوليس. إنه لا يخاف سوى من القانون والشرطيين. ليس لديه غير صديقين سيِّئين حقيرين لا أحد يحبُّهما في المدينة كلها.

مسألة أن نقتله ليست من بنات أفكاري. لقد ابتكرها هو بنفسه؛ فهو لا يرغب في الانتحار، على الرغم من أن شخصًا في تفاهته وفساد روحه يكون الانتحار هو الرحمة الوحيدة التي عليه أن يُهديها لنفسه، وللآخرين من بني البشر الذين شاءت أقدارهم أن يرتبطوا به في حياتهم اليومية؛ مثلنا أنا وابنته، ولكنه كان متمسكًا بفكرة أن المنتحر شخصٌ

غبيٌّ، أو بليد وجبان؛ شخصٌ لم يستطع أن يواجه أسئلة الوجود البسيطة المعقدة. القتيل هو الوحيد الذي يحمل شهادة أنه مختلف، وأنه إنسانٌ معقدٌ وعميق، ويحمل شهادة أن القاتل عجز تمامًا عن مقاومته؛ لأن دفاعاته كانت هي الأقوى، وأن هجومه قاتل؛ فالقتيل ثروةٌ قوميةٌ وثورةٌ مؤجلة، والقاتل هو المستثمر الفعلي لمشروع القتيل. وكان يرى أن القاتل هو أسير المقتول الأبدي. ربما انطلاقًا من تلكَ الفكرة بالذات، هو الذي وضع خطة موته — كما اكتشفنا لاحقًا — وهو الذي كتب رسالةً تقول إنه ينوي الانتحار، وعليها بصمات أصابعه وتوقيعه، وتركها في البيت مع تلكَ الأبيات من القصيدة المشئومة للشاعر الإنجليزي «تي إس إليوت» T. S. Eliot الموسومة بـ «الأرض الخراب»:

هناكَ رأيتُ واحدًا عرفتُه، فاستوقفتُه صائحًا: ستتسن!
يا من كنتَ معي على السفائنِ في ميلاي،
تلكَ الجثةُ التي زرعتها السنةَ الماضيةَ في حديقتك
هل بدأتْ تُورق؟ أما تراها تزهرُ العام؟
أم ترى أن الصقيعَ المباغتَ قد أقضَّ مضجعَها؟
إذن فلنطردْ بعيدًا الكلبَ صديقَ البشر،
وإلا نبشَ بأظافرهِ فأخرجَ الجثةَ مِن جديد.

مشئومةٌ لأنني في اليوم الذي قرأتها له، وهي المرة الأولى التي أسمع فيها بشاعر اسمه «تي إس إليوت». في هذا اليوم بالذات كنا قد نِمْنا معًا في سريرٍ واحدٍ كامرأةٍ ورجل. كانت ليلتنا الأولى، وليس كما ذكر الكاتبُ المنحازُ أنها الليلة التي أنهيتُ فيها قراءة حكايات «ألف ليلة وليلة». وما فعل الكاتبُ ذلكَ إلا ليضفي على ليلة لقائنا رومانسيةً بغيضة. في الحقيقة، أنا ودرويش لم نحبَّ في يومٍ ما بعضنا البعض.

كتب درويش كلَّ ذلكَ بخطِّ يده، وربما كانت تلكَ الرسالة قد تُمثل طوق نجاةٍ في وقتٍ ما، إذا لم يصدِّق القاضي أن درويشًا قد انتحر، واكتفى بشهاداتنا الثلاث، وتقرير الطبيب الشرعيِّ الذي يميل إلى حادثة الانتحار أكثر من ميله لعملية قتلٍ مدبرةٍ أو غير مدبرة، وأنه انتحر بعد محاولته قتل توني. وتطابَقَ ذلكَ مع رسالة درويش.

في الحقيقة، لم أقتله أنا على أية حالٍ متآمرةً مترصِّدة، بل لم أقتله في الأصل. ليس لديَّ سببٌ وجيهٌ لذلك؛ فكونه مُزعجًا ومُربكًا ومُرتبكًا ومتناقضًا لا يُعالج ذلكَ بالقتل، ولكن بالانتحار؛ لأن تلكَ شخصية لإنسانٍ محطمٍ من الداخل. هذا إذا جاز لي أن أُطلِق عليه صفة «إنسان». أظن أن درويشًا قد خطَّط أيضًا للطريقة التي ينوي أن يموت بها ليس إلا، ولم أكن سوى آلةٍ لتنفيذ وصيته غير المُدركة الساكت عنها. سأحكي باختصارٍ ما حدث:

بعد حواره السيِّئ مع توني خرج من البيت. وكان قد خاطَب توني بلغةٍ لا يمكن أن تصدر عن أبٍ. ولكي تتضح الأمور سأحكي بعض الحوار كما ذكره تُوني. بالتأكيد هذا لم يحكِه الراوي ولا الكاتب «المتحشر» للقُراء، وذكرا شيئًا مختلفًا كثيرًا عما حدث بالفعل، أو أطلقا العنان لخيالٍ مرحٍ مثاليٍّ.

قال لتوني عندما اختلى به في غرفة المعيشة وصرفنا أنا وميمي إلى غرفتي: اسمع أيها الوقح، أقول لك: إذا تأكد لي أنك تمارس الجنس مع بنتي، أنا سأنكِحكَ أنتَ أيضًا!

فقال له توني مُندهشًا: ولكنني لستُ مِثليًّا؛ أنا لا أميل لممارسة الجنس مع الرجال!

قال لتوني: أنا أيضًا لا أميل لذلك، ولكنني لا أتردَّد في أن أكون مِثليًّا في حالتك؛ لذا من الأحسن أن تترك سبيل ابنتي، وإلا سأنكِحكَ كما تُنْكَح المرأةُ!

حسنًا، حكى لنا توني ذلكَ وغيره كثير، وتداولنا الأمر في البيت وقلنا إنها طبيعته، وإنه سكرانٌ بعض الشيء؛ لأنه حكى لتوني قصةً غريبةً أظنها مغلوطةً ومختلقةً بصورةٍ كاملة؛ ممَّا أثار رُعب تُوني أكثر. لقد سأل توني: هل تعرفُ شخصًا نمساويًّا سجنه «الإمام المهديُّ» في السودان اسمه «سلاطين باشا»؟

فقال له توني: أنا لا أعرف «الإمام المهدي» ولا أعرف «سلاطين باشا»، ولكني متأكد أن اسم «سلاطين باشا» ليس اسمًا نمساويًّا؛ قد يكون تُركيًّا أو مصريًّا أو ألبانيًّا، ولكن ماذا عنه؟

قال له: لا تهمُّ دلالة اسمه؛ فاسمه الحقيقي «رودلف سلاطين»، ولكن هذا الرجل أراد أن يخدع «الخليفة التعايشي» — وهو الحاكم السوداني المسلم في ذلكَ الوقت — وأعلن أنه دخل الإسلام لكي ينجو من الموت ويتعايش مع الدراويش، فما كان من الخليفة إلا وختنه بنفسه وبيديه الطاهرتين. أتدري كيف ختنه؟

– لا، كيف ختنه؟

– أحضر الخليفةُ فأسًا من ذلكَ النوع الذي يستخدمه الدراويش الشرسون لتسوية أخشاب السنط الصلبة من أجل صُنع المراكب النهرية والبيارق الحربية — يُسمَّى مَحليًّا «القَدُوم» لأنه يشبه فكَّ الذئب — وأمسك به درويشان من أمراء المهدية مشهود لهما بقوة الإيمان وقوة البدن؛ وهما: الأمير «محمود ود أحمد» والأمير «يُونس الدكيم». والأخير هو الذي رشَّحه الخليفة «عبد الله التعايشي» للزواج من الملكة «فكتوريا»، ملكة بريطانيا العُظمى، بعد أن يقوم جيش الخلافة الإسلامية بفتح بلادها، بإذن الله وعزيمة الأنصار. وكان رجلًا قويًّا عنيفًا، وهو قائدٌ لجيوش الفتح. وبضربةٍ واحدةٍ حاسمةٍ سريعةٍ وخاطفة، قطع الفأسُ الجلد الزائد في ذَكَرِ «سلاطين باشا»، وتقريبًا استأصل أيضًا رُبع الحشفة — وهي مقدمة العضو الذكوري في الرجل — ولكي لا يموت «سلاطين باشا» من جراء النزيف، تمَّ صبُّ السمن الساخن على الجُرح. وهي فضيلة طبية كانت تستخدم في ذلكَ الزمن من أجل تحويل الجُرح إلى وضعية «الحريق من الدرجة الثانية»؛ حيث يسهُل شفاؤه. نعم، كان الأمر مؤلمًا، وكان صُراخ سلاطين باشا، المؤمن المسكين جديد العهد بالإسلام، يُسمع تقريبًا في كلِّ أنحاء المَدينةِ الطِّينيةِ المُقدَّسةِ الصَّغيرة الراقدةِ على جنب النيل الغربي: «أُم درمان». ولكن دُخول الإسلام ليس لعبًا يا ابني توني، مقابل ذلكَ الجنة في يوم القيامة بحُورِيَّاتها وولْدانها المُخلَّدين.

الذي يؤكد أن هذه القصة مختلقةٌ تمامًا وغير صحيحة، وأنها من بنات أفكار درويش، هو أن سَلاطين بَاشا كان مختونًا منذ صغره مِن قِبَلِ أسرته؛ فهو من أسرةٍ يهوديةٍ هنغاريةٍ شهيرة، ومعروفٌ أنَّ اليهود يختنون أطفالهم وفقًا لشريعة التوراة، بطرائق ختان أطفال المسلمين

الذكور ذاتها. ولكن لا يعرف توني هذه الحقيقة؛ توني الذي عَرفتُ مُؤخرًا أنه من أسرةٍ ذات أصولٍ يهودية.

وضحكنا على الرغم من أنَّ الأمر ليس مضحكًا، ونعرف أنه يعني تمامًا ما يقول، وأنه لا ينوي أن يُرهب توني فحسب، بل إنه يهدده بجدية. وكلمة «أنكِحكَ» التي قالها لتوني كانت تعني ببساطة: «أقتلك». وقصة بتر بعض الحشفة، والختان بفأس النجَّار، وشواء الجُرح، لم تكن رموزًا مجانيةً لإدخال الرُّعب في نفس توني فحسب، ولكن توني لا يفهم ما وراء كلمات درويش وحكاياته المختلقة؛ لأنه لا يعرف درويشًا عن قُرب.

فجأةً عاد من الخارج. بقي في غرفته حوالي رُبع ساعةٍ من الزمان، ثمَّ خرج إلينا بفكرة أن نتمشَّى. كان فَرِحًا ومنتشيًا، مختلفًا تمامًا عمَّا كان عليه منذ أن التقى بتوني، وما قبل ذلكَ أيضًا. واقتنعنا بفكرته جميعًا، ولو أن توني كان له رأي مُخالف، ولكن ميمي أقنعته، فركبنا السيارة إلى سفح الجبل، ثمَّ بدأنا نتمشَّى عبر ممرَّات المُشاة لأعلى. ونحن معتادون على ذلك، فدرويشٌ، ومنذ أن كانت ميمي صغيرة جدًّا، كان يتمشَّى معها في هذه المرتفعات الجميلة الآمنة، وأحيانًا بالعجلة التي يحبُّ ركوبها؛ حيث لا تُوجد وحوشٌ ولا أيٌّ من الهَوَام التي تمثِّل خطورةً على الحياة. في بعض الأحيان، هنالكَ بعضُ الغزلان البرية الصغيرة، والثعابين غير السامة، والضفادع، والسحليات ذات الألوان الزاهية. درويش يحبُّ أن يزور قبر والدتي، أو في الحقيقة رمادها الذي شتَّته في المكان، ودفن البقية في عُلبةٍ من الزجاج تحت الصخرة التي سقطتْ منها، وكانت سبب موتها بعد سنواتٍ عديدات. وضع درويش شكلًا لملاكٍ منحوتٍ من الحجارة الجرانيت عليه؛ وذلكَ وفاءً وحبًّا لها. وفيما أظنُّ أن درويشًا لم يحب ولم يكن وفيًّا لإنسانٍ على وجه الأرض غير أمي، وكان يطيعها طاعةً عمياء حيةً وميتة. الشيء الوحيد الذي لم يفعله لأجلها هو عدم الاحتفاظ بالكلبين؛ فلقد تخلص منهما مباشرةً بعد موتها، باستيداعهما مؤسسة رعاية الحيوانات الأليفة التي لا راعي لها. وكانت لديه فكرةٌ غيرُ حسنةٍ عن الكلاب مفادها: «أن البيتَ الذي به كلبٌ لا تدخلُهُ الملائكة.» ولكن في

الواقع، إن البيت الذي به درويش لا تدخله غير الشياطين والأبالسة وآلهةِ الشرور كُلِّها. والأغرب أن تلكَ الكلاب التي خانها هي سببُ كلِّ النعيم الذي هو فيه الآن؛ فقد كانَ يعمل مُخَرِّيًا لها.

كلَّما تقدَّمنا في الصعود؛ يصبح الجوُّ أكثر برودة، والهواء يثقل، وكنا متوقعين ذلكَ حسب النشرة الجوية؛ حتى المطر لم يفاجئنا. شرعنا مِظلاتنا، ولم نتوقَّف عن المشي. يتقدمنا درويش، وقريبةً منه أنا، ثمَّ توني وميمي كانا في المؤخرة. الأرض لِثِقةٌ، والعُشبُ مخضلٌ، ولكن المشي مأمون. فعبرنا كنيسة الكاهن المنجوتة على الصخور الجيرية، نحو الأعلى. لم نلاحظ وجود عددٍ كبيرٍ من الزوار إلى أن انتهينا إلى قبر أمي؛ كانت السحبُ قد أفسحت الجوَّ لشمسٍ دافئة. مكثنا هنالكَ نرتِّب بعض الأزهار حوله، وكان درويش أخذ في تنظيف التمثال الحجري بينما توني وميمي كانا يجمعان بعض زهور الليلَك البرية ليضعاها حول التمثال. كنا صامتين، ما عدا درويشًا الذي أخذ يُنشدُ بصوتٍ هادئٍ — ولكنني كنتُ أحِسُّه مُرعبًا — تلكَ القصيدة التي لا أحبُّها:

April is the cruellest month, breeding
Lilacs out of the dead land, mixing
Memory and desire, stirring
Dull roots with spring rain
Winter Kept us warm, covering
Earth in forgetful snow.

تخرج الكلمات من فمه كالنيران من مِنخرَيْ تنِّينٍ رهيب. وكنتُ أحِسُّ بشيءٍ يغلي في أعماقه، أو مِرجلٍ يفور. ما كان ينظر إلى أيٍّ منَّا في عينيه؛ إنما احتفظ بمقلتيه منكفئتين على وجهه، بينما انهمك في تنظيف التمثال وتلميعه وهو يردِّد افتتاحية قصيدة «الأرض الخراب» بالإيقاع ذاته. كلما خلص بدأ من جديد، على الرغم من أنه يحفظ مقاطع أخرى كثيرةً جدًّا من القصيدة؛ بل يكاد أن يحفظها كلَّها عن ظهر قلبٍ كما تُحفظ المُعَلَّقات العربية. شربنا بعض العصائر الطازجة، ثمَّ بدأنا مشوار

العودة، واقترح علينا ألا نعود من السبيل ذاتها التي أتينا منها. ونحن دائمًا ما نفعل ذلك؛ أن نتخذ طريق الجرف، فسِرْنا جميعًا هابطين من الجبل إلى السفح.

وفجأةً حدث كلُّ شيءٍ بسرعةٍ رهيبةٍ وبدون توقُّع: بينما كنا نمرُّ بجرفٍ عالٍ في الطريق الضيقة الصخرية على حافة الجبل توقَّف درويش. انتظر قليلًا إلى أن مَرَّ توني قريبًا منه. قبض توني من يديه الاثنتين، ودفعه بكلِّ ما لديه من قوَّةٍ نحو الهاوية. ومع رطوبة الأرض، لم يستطع توني استعادة توازنه، ولكنه تمكَّن من التشبُّث بشجرةٍ كانت تبعد أمتارًا قليلةً من حيث سقوطه، أو أن الشجرة هي التي أنجدته وتشبَّثت فروعها به.

ولا أدري كيف قمتُ بالخطوة التالية! حيث إنني دفعتُه — ذلكَ مُؤكَّدٌ — بكلِّ قواي إلى الهاوية التي كان يقف على حافَّتِها يُحمِلق في توني وهو عالقٌ في غصنٍ كبيرٍ في الهاوية؛ تمامًا في موقع من ينوي القفز من تلقاء نفسه وهو على أُهْبَةٍ، فانحدر نحو الأسفل بدون أية مقاومة وكأنه جثَّةٌ هامدةٌ لا روح فيها تسقط في الهاوية سقوطًا حُرًّا.

وعندما ارتطم بالأرض أصدر دويًّا مُرعبًا اختلط مع صفارة مركز إطفاء الحرائق وهي تعلن منتصف النهار. أظنني أنا التي دفعته نحو الهاوية، وقد يكون هو الذي سقط من تلقاء نفسه، أو هو الذي طلب مني أن أدفعه، ولو عن طريق تعابير جسده؛ لغة دمه الذي يتشهَّى العدم. لقد قرأتُ مرةً أن الدَّمَ يصرخُ مُناديًا سَافِكَه. إذا كنتُ أنا التي دفعتُه فلستُ التي قتلته؛ فالفعلان مختلفان. هنا أتحدثُ عن الإرادة والرغبة في الموت. لو صبرتُ قليلًا لألقى علينا تحيةَ الوداعِ ومضى لحتفه. هل تعجَّلتُ؟ على كلٍّ، أنا لستُ متأكدةً من شيء. يبدو أنني مرتبكةٌ قليلًا.

عبد العزيز بركة ساكن
سالفلدن ٢٢ / ٦ / ٢٠١٤

«عبد العزيز بركة ساكن» الذي نسج أجمل سردياته من سِيَر المهمَّشين، واغترف واقعياته السحرية من قلب الواقع السوداني، يخرج هذه المرة رفقةَ المُهاجر، خارج حدود الوطن، داخل حدود الإنسان.

مستلهمًا رائعة «تي إس إليوت» «الأرض الخراب»، يرسم الروائيُّ السودانيُّ البارع عبر تقنيات تصويرٍ وتجسيدٍ فريدةٍ ومبتكرة، صورةَ «الرجل الخراب»: لنرى كيف يصيب الخراب رجلًا بكامله، بل كيف يتحوَّل الرجل نفسُه إلى خراب يمشي على قدمين، ثقيلًا لا يُطيقه أحد، ومُثقلًا بما لا يُطيق. إنه «درويش» السودانيُّ المصريُّ، الرجل الذي تلاحقه لعنةُ وصفِهِ بـ «الأجنبي» أينما حلّ: ببلد أمه، ثم بمحطات هجرته، ثمّ بمستقَره في «النمسا»، بينما يتصاعد صراع الهُويّة في كلّ خُطوة: صراع بين الماضي الضبابي والحاضر المضطرب، بين الموروث والمكتسب، بين الحُلم والرؤيا والكابوس، بين الصورة الذاتية والانعكاسات في عيون الآخرين.

كلُّ ذلك يسْهل توقُّعه عند تناول روايةٍ تجري أحداثها في المهجر، لكن ما يفاجئنا به «بركة ساكن» ليس مجرّد روايةٍ تقليديةٍ عن شخصٍ عربيٍّ مسلمٍ قاسى الكثير، وجُنَّ جنونه لحظة اتخذت ابنته صديقًا، فإن القارئ سرعان ما ينغمر إلى أذنيه في عالمٍ شديد الواقعية والصدق، يعرف خلاله صفحةً تلو صفحةٍ أن «الرجل الخراب» ليس الخراب الوحيد.

١٢٨ صفحة

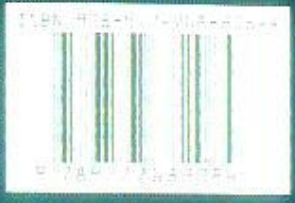

http://www.hindawi.org

هنداوي | كلمات